مجہول

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

الكتاب : مجهول

الكاتب : هاني صموئيل

تدقيق لغوي : احمد محمد عبدالستار

تصميم الغلاف : محمد يسري

رقم ايداع: 21717

ترقيم دولي: 978-977-85439-9-5

دار سنون للنشر والتوزيع

الزقازيق - الشرقية - مصر

٠١٠١١٤٦٤٠٣٧

sonon.pub@gmail.com

مجهول

هاني صموئيل

إهداء إلى: نفسي، استمري ولا تتوقفي.

مر اليوم السابع دون اختلاف يذكر عن قبله! لا جديد، لا أمل، أنهكتني تلك الأحداث حتى صرت وحيدا في منزلي. لم أغادر مغارتي منذ ذلك الوقت.
الموت، العمل، الحياة، الحب، الرزق، المأكل، المشرب وحتى المسكن. . .
ماذا تعني؟!
ولِمَ الموت؟! لِمَ الافتراق؟! لِمَ الكذب والنِفاق، لِمَ الحياة من الاساس؟!
كيف يمكن أن احيا في مجتمع لم يعد للفضيلة وجود، وما هي الفضيلة من الأساس؟!
الله، لِمَ دائما صامت؟! لا يتكلم، لا يجيب، لِمَ لا يتدخل، أيستهويه ما يحدث؟!
لماذا رحل طفل الشارع وبتلك الطريقة المؤلمة؟!
لما تُـنزع منه الحياة؟! لِمَ لا يُـوهب عمرا أكثر كما يُـوهب غيره؟! بتلك البساطة يموت، وبهذة الطريقة السيئة التي لا تمت للإنسانية أو للرحمة بشيء، الموت الذي لا يرحم ولا يعي ويشعر، كأسد حر ينهش في من أمامه دون شفقة أو رحمة أو أي اعتبار آخر، فقط الافتراس!
لم الموت من الأساس؟! ألا يمكن لله أن ينهي حياتنا بطريقة أبسط وأكثر رأفة بنا من الموت؟!
أنا. . . متى أموت وكيف ولماذا؟
صديقي طفل الشارع لم يحيَ كغيره. . تألم، تعذب، أهين ثم رحل، أخذه الموت غصبًا. وانا. . ماذا فعلت؟!
أسئلة بلا إجابات، والجميع ينخرط في اللامعنى.

• • • • •

اليوم، الحادي والثلاثون من شهر ديسمبر. . الجميع يتهيأ، الجميع يحتفل، الجميع يتزين، الجميع يهنئ الجميع!! ما الذي يدعو للاحتفال؟! لن يتغير شيء، لن يعود الزمن للوراء، ولن يعوض ما هو آت ما مر فلمَ الاحتفال؟! تنتهي سنة من الزمن وسنة من سنين غربتي على الأرض، سنة من وجودي على هذا الكوكب وفي تلك الحياة، سنة كباقي السنين السابقة، لا جديد يقال فيها، فقط ما إلا قديم يُعاد، سنة تضاف إلى السنين السابقة وتزيد فوق الهم همًا آخر وبجوار الأسئلة أسئلة أخرى، وإلى الألم ألم آخر، وبجوار التيه حالة من التيه الآكبر، إنه يوم ملعون، رأسي لا يحتمل كم الأفكار التي تتزاحم، ولا تفسير للأحداث التي تتراكم، أشعر بأنني على حافة الجنون. لا أستطيع مجاراة النتائج، لا أتمكن من تحمل تلك الضغوط، أسباب لا تحصى، نتائج لا تحتمل، لم أعد قادر على سند ما تبقى بداخلي، لم أعد قادرا على دعم نفسي كما كنت أفعل دائمًا، لم أكن أتوقع أو يخطر في ذهني أن أصل إلى تلك اللحظة أبدًا، لم أكن أحسب أنني سأواجه يومًا شيئًا كهذا، ولو حتى مجرد تفكير!

حاسوبي مغلق يرتكز أعلى مكتبي الخاص بي، مكتبي مجرد طاولة قديمة تزين غرفتي التي لا تتخطى ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار، تحتويني أنا ومكتبي المتهالك بحاسوبي الذي قارب على نهاية قدرته على إنجاز الأعمال وخزينة بضلفة واحدة تؤوي ملابسي. . قاومت نفسي حتى تمكنت من الوصول إلى الحاسوب قمت بتشغيله. . وكالعادة ذهبت إلى الصفحة الشخصية التي أملكها على موقع التواصل الاجتماعي ((فيس بوك))، لا جديد تحتويه، أخبار لا تمل من تكرار نفسها، حالات إحباط لا تتغير، عالم افتراضي لا يمت بصلة من قريب أو بعيد للواقع. . قررت تسجيل ما أشعر به في جملة، لا

لشيء، فقط أرغب في بعض التنفيس، سجلت عليها:
-ما هذه الحياة التي تؤلم، إنها بلا قيمة، ما هذا الاختناق، إنني أشعر بالمرارة، فلا شيء يستحق، فتلك الحياة لا تعني شيئًا، ولا قيمة لها. -
قمت بالضغط على زر النشر، ولم أستطع التصفح أو البقاء أكثر في هذا العالم الافتراضي فأغلقت الحاسوب، هاتفي، هاتف ذكي، هكذا يطلقون ع الهواتف، هواتف ذكية، فلديها قدرة رهيبة على الفهم وإنجاز الاعمال!! ولكنه لم يتمكن من حمايتي من تلك الحالة الكئيبة أو الصراع الفتاك الذي يكاد يفتك برأسي وعقلي، أمسكته وتمعنته جيدا، مجرد آلة، هذا ما اكتشفته الآن، مجرد آلة لا تغني ولا تزيد، قررت كتابة رسالة إلى العم حمزة، فهو الوحيد القادر على تفهمي أو على الأقل سماعي، كتبت الرسالة:
-عم حمزة. لقد سئمت الحياة، لم أعد أشعر بقيمتها، لم أعد واعيا لشيء، تائه أنا! غريق! لم أعد أحتمل تلك الحياة. . ابنك مجهول. -
حددت اسم العم حمزة وضغطت زر الإرسال. . . نهضت من موضعي، اتجهت إلى باب الغرفة، تلك الغرفة التي قضيت بها أكثر من نصف عمري، إنها كفني المقدس، مغارتي كما تدعوها أمي. . مغارة احتضنتني من مولدي إلى اليوم، أقرب إليّ من الجميع، تفحصت جيدًا كل تفصيلة بها، أشعر كأنها المرة الأخيرة! صوت أحد على باب غرفتي يحاول الدخول، اتجهت إليه وإذا بها قطتي هنية هكذا أحب أن أدعوها، أكثر من أحببته، أشعر تجاهها بالأبوة الحقيقية، أشعر بأنها ابنتي، تلك الروح والقلب، وأكثر من أحببت في تلك الحياة. اقتربت إليّ، تلمست قدمي، حان ميعاد طعامها، انحنيتُ على قدمي وأمسكتُ بها، تفحصتها بالكامل واحتضنتها وسرى إلى جسدي صوت خريرها، تشعر معي بالأمان والاستسلام الكامل، حب غير مشروط،

ابتسمت ابتسامة صغيرة واحتضنتها أكثر فأكثر، قبلتُها ثم تركتها، تحركت وهي تتبعني في أقدامي متجها إلى غرفة والدي. وصلت إليه وألقيت عليه التحية، والدي المريض يبلغ من العمر ٧٨ عاما أنهكته واستنفذت طاقته، سيطر العجز على كل ذرة بجسده، سلب العجز كامل جسده لم يترك منه شيئًا صبيًا، سلب نظره وقدرته على الحركة، أسنانه، أصابه المرض وتوغل في أعضائه. . . لم يتحرك من موضعه على ذلك السرير منذ أكثر من عشرة سنوات! إنه الزمن الملعون الذي لا يتوقف، يتحرك بسرعة مجنونة، يسلب ويستعبد كل من وجد على هذه الأرض، لا يرحم ولا يفترق لديه الضعيف من القوي، يستمتع بذل الجميع، يأخذ ولا يعطي، يبتسم لكل ألم وكل احتياج، لا أدري ما قيمتها تلك الحياة التي بلا معنى؟! ما قيمة الحرية، الإرادة، الاختيار، العمل، العبادات، السؤال والجواب، وأنت مقعد داخل حجرة وأربعة جدران تغلق جميع المنافذ، لا ترى، لا تسمع، فقط ما ترى أو تسمع اليوم هو بقايا الأمس. . . اليوم كالأمس والأمس كأول أمس وأول أمس كاليوم الذي مر منذ عشر سنوات!! فقط تتعايش على بعض الشفقة وكلمات التعزية التي تحاول قدر المستطاع الحد من ألم ما أنت فيه، ولكن الألم يوما فيوم يزداد يتغذى فيتوحش يأخذ منك حتى تستسلم كاملا، يشعر حينها بانتصاره فيتركك جثة هامدة يتغذى عليها أضعف المخلوقات!! فما قيمة الفكر والرؤية، ما قيمة الحياة وأنت ميت، ما المعنى؟!

تقدمت تجاهه وقبلت رأسه ثم يد والدتي التي لا تفارقه فهذا قدرها، هذه رسالتها كما تقول. . وكالعادة تودعني أمي بدعوات لا حصر لها، دعوات الخير والسلامة في كل خطوة أخطوها والحماية الإلهية وإلخ. كثيرة هي الدعوات. . ولكن كم عدد المستجاب منها أو حتى المسموع؟ هززت رأسي

شاكرًا أمي ثم أعطيتها ظهري متجهًا إلى الخارج، خرجت من المنزل متجهًا إلى اين؟! حقًا، لا أعلم! جلت في شوارع المدينة ذهابًا وإيابًا ولا أدري إلى أين أذهب! حتى تعبتُ، ووجدت نفسي وقدمي تأخذني إلى ذلك المكان وإلى تلك اللحظات، كيف وصلتُ لهذه اللحظة؟! كيف آلت الأمور إلى وجودي هنا؟!

هذا المكان لم يكن يفارق عقلي أبدًا. . كان الونيس والصديق، لم يغب عن ناظريّ يوما، كم عدد المرات التي مررتُ بها من خلاله؟ لا تحصى، يوميا كنت أعبره ذهابا وإيابا من العمل. . . قناطر أسيوط أو الخزان الكبير كما يُطلق عليها، مبان هندسية رائعة عملاقة، قدرة إنسانية خارقة، ما أروعها مياه النيل وهي تتلاطم وتصطدم بتلك البوابات التي تحجزها فتعود للخلف تتلاطم مرة أخرى وهلم جرا، ينتشر رذاذها أعلى الكوبري فيعطي المكان والجو حالة لطيفة مع بعض الهواء الذي يطاير شعري، يداعبني حينها إحساس بالابتسامة والارتياح، ما أروع تلك المياه وهي تتلاطم، لوحة رائعة الجمال دون رسم أو مؤثرات، فهذا هو الجمال في طبيعته، تتلاطم المياه في نهر النيل ما بين اللون الأزرق والأبيض، متعة للعين والقلب وأيضًا رُعب! فالرعب يخرج من قوتها، فهي تبتلع ما أمامها، إنه مكان مسحور، قوة جبارة لا تتوقف ولا يمكن السيطرة عليها إذا غضبت، إلا أن بها حنان ما، فهي تسمع شكواك وهمومك ولا تتذمر من سماعك! لا أعرف كيف يجتمع الجمال والرعب، المتعة والخوف في مكان واحد! ولكن هذا المكان يأخذ مني عقلي في كل مرة أنظر فيها إليه!!

- ماذا حدث إذن؟

كان هذا صوته، أتاني من الجوار، كنت أعلم أنه سيأتي وكنت أنتظره، إنه

ملاكي الحارس، باطني الذي يدعو دائمًا للمثالية وللقيم المجتمعية، لا يشعر بالواقع، إنه من عالم آخر، يدعونه أحيانا بالأنا العليا!!

- انتظرتك طويلا، كنت أعلم بأنك ستأتي حتى وإن تأخرت، إنها عادتك.

- أهذا سؤالك يا ملاك؟

نصفي الثاني، دائم التواجد، حاضر حتى بالصمت، لا يتأخر، شيطان!! شيطان هو من يبحث عن النجاح، اللذة وتحقيق الذات بغض النظر عن الوسيلة!! يدعونه أحيانًا بال(هو)، كنتُ أعلم أنه متواجد، فقط ينتظر اللحظة التي يتحدث فيها. . . لا تتعجب فهو نصفي الآخر، فهما وجهان لعملة واحدة تُدعى مجهول، أنا.

الاثنان دائما التواجد، وفي حالة دائمة من الجدال والعراك، لكل منهم وجهة نظر في كل شيء، لا يتنازل أحد منهم عن رأيه، يتقاتلان حتى ينتصر أحدهم ويحدث هذا في كل موقف وكل شيء. . . الاتفاق بينهم نادر الحدوث!

ابتسمت بسخرية وصوبت نظري إلى شيطان محدثًا إياه:

- أهلًا يا شيطان كنت على يقين أنك لن تتركني، خاصةً في تلك اللحظات، فأنتما الاثنان كظلي لا تتركاني حتى وإن تركني ظلي. ماذا تنويان؟ فأنت يا شيطان لا تتركني لحظة أو همسة، ففي كل كلمة وهمسة وغمزة حاضر، دائم العمل لا تكل ولا تمل، أعلم أنك لن تصمت بل تريد أن تضع لمستك وأن تطرح كلمتك، لن أمنعك، تحدث، قُل ما لديك.

- أنا أنا أنا فقط يا مجهول. . أنا عقلك وقلبك أنا جزء منك. . لا أستطيع تركك أو التخلي عنك، كل ما أريد فقط توضيحه لذلك الملاك، أيسألك الآن ماذا حدث؟

رفع نظره عني وصوبه ناحية ملاك موجهًا حديثه إليه قائلًا:

- الآن يا ملاك، الآن!! غريب سؤالك ومتأخر جدًا، ألم تكن معه في كل خطوة وكل موقف، ألم تتأثر بكل فعل، ألم تعاني معه، ألم تختنق مع كل ألم مر به مجهول، أم كنت كالعادة منعزل لا تأتي إلا فقط للتبرير عن نفسك وعن تركك له، فقط من أجل نفسك، لم يعد للكلام الآن معنى، إنه الآن هنا لأنه ببساطة لم يــعُدْ للحياة معنى، أنا أعرف ما في عقله، فدائمًا أشعر به وبمعاناته، لم أتركه لحظة أو طرفة عين، أنا هو حقًا وليس بي غش أو إدعاء فإن قلبي هو قلبه وروحي هي روحه فألمه ألمي، تنهيداته من صدري ودمعه من عيني، أشعر بكل ما يُعانيه وأعلم حاله وما آل إليه، إنه هنا الآن لينهي تلك المهزلة المسماة حياة، هذا قراره، قرار بكامل إرادته دون تدخل أحد. أليس كذلك يا مجهول؟!

قالها وهو يرمقني بنظرة ثقة قاتلة.

- نعم يا شيطان لك الحق. .

صمت قليلا ثم حولت نظري إلى ملاك وأكملت متنهدًا:

- سأقفز يا ملاك، في تلك المياه كما سمعتني مرارًا وتكرارًا ولم تتذمر، ستبتلعني ولن تتذمر أو ترفض، لعلها تريحني من آلامي وعذابي. . إنني أتألم بشدة، مختنق ولا أستطيع التنفس، إنها حياة لا تستحق، حياة متعفنة، لا تُعطي شيئًا بدون مقابل، وبالمقابل تأكل في لحمك بل في روحك، تأكل ولا تشبع، تأكل وتسمن، تأكل وتسعد!! تأكل هي وأجوع أنا، تأكل هي وأموت أنا وأنا على قيد الحياة.

انفعلت وارتفع صوتي:

- كيف وصلت إلى هذا الحد! كيف وأنا لم أفقد الأمل يومًا!

قلتها وأنا أضع يدي الاثنتين فوق رأسي وأغلقت عيني محاولا استنشاق

بعض الهواء لعلي أستيقظ مما أنا فيه.
- اتركه يا شيطان.
قالها ملاك بصوت غاضب وقوي ثم أكمل بجدية أكثر:
- اتركه ولا تعكس له الأمور أو تريه نصف الحقيقة.
ثم نظر إليّ مكملا حديثه:
- مجهول، أنا لأجل هذا أسألك: لماذا بعد كل تلك الرحلة العنيدة تفكر في هذا وأنت لم تفقد الأمل يومًا؟؟ لماذا تفكر الآن هكذا؟ لقد مررت معك بكل تفصيلة بكل لحظات الألم وكل لحظات السقوط. أتعلم، أنا لا أنكر الألم، فما أكثرها وأصعبها لحظات، لحظات السقوط. . . وأعلم كم مررت بالألم وحدك، فأنا أعلم كم تألمت وكم قاومت واجتهدت، أعرف كم سعيت للتغير والتجديد ولإيجاد الأجوبة، وأعلم تمام العلم، كم تعثرت وسقطت، أعلم كم من مرة كنت في أشد الاحتياج إلى معين ولم تجد، صرخت في صمتك ولم يسمعك أحد، بكيت ولم يمسح دمعك أحد، انكسرت وانكسر بداخلك الكثير والكثير ولم تجد من يجبر كسرًا فيك، كنت تسمع شيئًا وترى آخرًا، كنت تأمل شيئًا وتجد آخرًا مختلفًا عنه، أعلم أعلم جيدًا.
هدأ قليلا ثم أمسك بذراعي ونظر إلى عيني وأكمل حديثه:
- ولكني أعلم أيضًا أنك تمكنت من الوقوف في أحداث صعبة كثيرة، هل تذكرها أم تناسيتها؟!
قالها بصوت مليء بالحنان، لعلها تؤثر فيَّ.
- إنني أذكرها يا ملاك أذكرها.
قلتها بصوت لا يقوى على الخروج.

• • • • •

قالها بصوت مليء بالحنان، لعلها تؤثر فيَّ.
- إنني أذكرها يا ملاك أذكرها.
اجتهدت لإخراجها، فصوتي لم يكن يقوى على الخروج.
طفل صغير يرتاد المدرسة الابتدائية، لديه عائلة جميلة، أب وأم، مسكن، ملبس، مأكل، مشرب، لا أحتاج لشيء. . فما أحتاج أكثر من هذا! لا شيء. . ألعابي متوفرة وبكثرة، لدي من الأصدقاء والأقارب الكثير. . نلعب سويا يوميا، فما سأحتاج؟! هناك الكثير من الأطفال في عمري لا يمتلكون أسرة أو أصدقاء، لا يمتلكون منزلا يؤويهم. . يوميا أذهب إلى المدرسة صباحًا، أكتشف المعلومات الجديدة وأتعلم، أقابل أصدقائي ثم أعود للمنزل نازعًا ما ارتديت قبل أن أصل لغرفتي، فأنا أرغب في الحرية كطفل. . أنجز ما عليّ من واجبات سريعًا وأنطلق للعب والمرح مع باقي الأطفال سواء في المنزل أو في الشارع. . . ينتهي يومي، يأتي العشاء فالتلفاز ومسلسل الكرتون المفضل، ثم النوم العميق. إنها حياة رائعة فلا مسئولية أو تساؤل أو شك أو معرفة أو جدال أو حرية أو تبعية، إنها حياة بلا معنى، ما أجملها، فالحياة تدفع نفسها للأمام، تسير القدم فتجر الأخرى وهلم جرا، إنها حياة سلسة وممتعة.
نمرح، نلعب أنا والأطفال، نتشابك، نبكي ثم نتصالح، نغضب فنتخاصم ودقائق معدودة نتصالح وننغمس في الألعاب، لم يكن لكرامتي وقتها معنى أو قيمة، لم يكن في قلوينا ما يسمى الحسابات أو الانتقام أو الكره، بل الحياة تسير بصفاء وبراءة الأطفال، نبني بيوتًا ونهدمها في وقتها، نتقبل الملابس أيا كانت، نأكل ما يوضع أمامنا، ننام أثناء الغذاء، الليل كالنهار لدينا، أقصى درجات الاستمتاع حين نشاهد أفلام الكرتون، كابتن ماجد،

مازنجر، سلاحف النينجا، سابق ولاحق، بوجي وطمطم. . والسلسلة تطول، ما أبسطها وأسهلها أيام، لم تكن للعُقد أو المشاكل موضع بيننا، لم يكن بالعقل سوى اللحظة الراهنة، سوى التغاضي عما يزعجنا، والبحث عن كل ابتسامة، لماذا لم تتوقف الأيام حينئذ، لماذا لم نبق للأبد أطفالا، لماذا؟!

أحببت الطفلة الجميلة التي تهتم بي وتسأل عني في المدرسة، ثم أحببت أخرى، ثم أخرى، وتمر الأيام وأحببت بنت الجيران، فالحب مرحلة متغيرة، فحسب ما يتاح لي من فرصة واهتمام، هذه هي قوانين المرحلة.

تمر الأيام لا تتوقف، فأعبر الابتدائية فالإعدادية وتأتي معاناة الثانوية.

- انتظر.

كان هذا صوت ملاك، قفز من بين كلماتي وكأنني أهنته:

- انتظر كيف لم تتذكر تلك الطفلة الجميلة ياسمين!

• • • • •

براءة الاطفال!!

- انتظر.

كان هذا صوت ملاك، قفز من بين كلماتي وكأنني أهنته:

- انتظر كيف لم تتذكر تلك الطفلة الجميلة ياسمين؟!

- ياسمين. . . نعم، إنني أذكرها، لم تغب عن فكري يومًا، فتلك الطفلة كانت حالة. كانت رائعة بحق.

- إذن أخبرني عنها، ألا تستحق أن تحدثني عنها ولو قليلًا!

- نعم، تستحق. . . ياسمين، تلك الطفلة الجميلة، الروح الحية والتي بالفعل أوجدت لنفسها قيمة ومعنى.

وكيف لي أن أنسى ياسمين، فما حدث لها كان بداية وجه الحياة الحقيقي، نهاية للطفولة البريئة والسلام الداخلي، هنا يبدأ الألم.

كنا في نفس الفصل التعليمي بالصف الأول الابتدائي، كانت من الفتيات النشطات والملتزمات، طفلة منظمة وذكية وقد كانت كلماتها وأفكارها أكبر من عمرها الجسدي، لم يكن بيننا نحن الأطفال أي كراهية أو حقد أو بُغض أو كرامة أو أو أو. . . كنا أطفالا، تلك الكلمة ببساطة تفي بما أُريد قوله، نتعامل معًا دون النظر للملبس أو المأكل أو السكن أو منصب الآباء أو لدين أو أي شيء. أطفال وكفى.

كنا بداخل الفصل التعليمي بدرس الرسم، هنا نخرج طاقتنا، أفكارنا، خيالنا، فالرسم للطفل كالدواء للمريض، بدونه يموت خيال الطفل، وينتكس

ذكاؤه، كانت المعلمة إيمان تشرح لنا كباقي المعلمين، درس لا يختلف عن بقية الدروس، بعض الكلمات تكتب بالسبورة وبعض الكلمات ومشاهدتنا لبعض رسوماتها ثم الصمت التام حتى يحين وقت الجرس. . . انتهى الشرح والرسم ولا يزال متبقيًا من الوقت خمسة عشر دقيقة حتى ينتهي الدرس، فجلست المعلمة وأخرجت أحد الكتب من حقيبة يدها وأخذت تتصفحه تاركة الطلبة في حالة صمت ينتظرون بفارغ الصبر الجرس. . . ودخل الطلبة في حالة من الضوضاء واللعب والكلام الجانبي كعادة الأطفال! ماعدا ياسمين، كانت تعشق الرسم، طفلة مختلفة عن بقيتنا، أمسكت بأقلامها وكراسها وبدأت في خط خيالها على الأوراق خاصتها، ظلت ترسم وترسم، ما يحتاجه الطفل فقط بعض التشجيع، مجرد كلمة تفرحه ومجرد كلمة تقتله. . . ظلت ترسم وترسم وترسم وفجأة بدأ صراخ المعلمة إيمان:

- ماذا تفعلون، ألا تفهمون أيها الأغبياء. . ألم أقل لكم أن تصمتوا حتى ينتهي ميعاد الدرس ها؟! فليقف الجميع وليرفعوا أيديهم لأعلى. . .

وقفنا جميعًا كالماشية حين تنتظر دورها في الذبح ولا حول ولا قوة لها!! بدأت المعلمة بالخروف الأول، أعتذر أقصد الطفل الأول وبدأت بضربه على ظهر يديه بسن المسطرة، لك أن تتخيل الألم، استمرت طفلا تلو الآخر حتى وصلت إلى ياسمين، تلك الطفلة التي رفضت أن تُعامل كـهذا وبهدوء الكبار نظرت إلى المعلمة وقالت:

- أيتها المعلمة، لم تضربيني؟! انا لم أقترف خطأ يذكر.

- ولكنكِ بالفعل أقترفتي خطأ. . . لقد أكثرتم الحديث الجانبي وقد حذرتكم منه وطلبت منكم الصمت، أليس كذلك؟

- حدث ولكن، أنا لم أتحدث، ما فعلته فقط أنني أكملت رسم وها هي

رسوماتي، أهذا خطأ أُعاقب عليه؟!
استشاطت المعلمة غضبًا. فهي لا ترغب في الحوار، ترغب فقط في قهر الطلبة.
- ولكني سأعاقب الفصل كاملًا دون استثناء أحد.
- ولكنني لم أفعل شيئا، أنا أريد الذهاب إلى مدير المدرسة الأستاذ محمود.
سخرت المعلمة منها وارتفع صوتها، حينها سمع الصوت الأستاذ محمود حين كان يمر بالطرقة أمام الفصل فدخل ليعرف ماذا يجري، قصت له المعلمة عن سوء سلوك الطفلة ولكن ياسمين طلبت أن تتحدث معه على انفراد، واستجاب لها الأستاذ محمود، قصت له ياسمين ما حدث معها بالتفصيل، كيف كانت تلك الطفلة عاقلة محددة منظمة حرّة وتشعر بقيمتها، إيجابية لم تستسلم أو تستهين بصغر سنها، فتعجب المدير من جرأة الطفلة وطريقة حديثها وأسلوبها، وأعادها للفصل معززة مكرمة، مما جعل المعلمة تستشيط غضبًا وظلت لفترة طويلة متعنتة تجاه ياسمين، حالة من التربص والتصيد لكل كلمة وفعل وحركة مما تسبب لياسمين بحالة من الضيق والخوف، في النهاية هي طفلة صغيرة!! وفي خلال فترة قليلة تسببت المعلمة بحالة من الخوف لياسمين، يوما فيوم لم تعد تلك الطفلة البريئة الجميلة ترغب في الذهاب إلى المدرسة. . وأخيرًا تركت التعليم، تركت الفتاة المدرسة! هنا بدأت الحياة حقا!!

• • • • •

- هذا الطبيعي، تلك هي الحياة، فكل شيء بالقوة والسلطة والقدرة.
ألقاها شيطان سريعًا. وأجبته أنا أيضًا سريعًا وبدون تردد:
- نعم يا شيطان لديك الحق.

فبماذا اجيب؟! أو ماذا يقال؟ لا شيء، هذا هو الواقع، نظرت إلى ملاك موجهًا حديثي إليه وأنا في حالة من الضيق:

- لماذا يا ملاك؟! لقد تناسيت منذ فترة، لمَ أعدت إلى ذاكرتي الألم، أتراني في حالة أستطيع فيها تحمل ألم تكثر!! لقد انتهت تلك الفتاة بسهولة ويسر، ولم يتمكن أحد من إنقاذها، أو لم يعر أحد اهتمامه بها. . فهي من أسرة عادية بسيطة، لا فائدة منهم!!الفتاة كانت متميزة والمستقبل أمامها ولديها القدرات المؤهلة أن تنجح في الحياة، بل أن تصبح شخصًا مهما. ولكن ليس هذا هو المعيار. . وها قد انتهت بسبب معلمة!

نظر إليّ ملاك محاولا توجيه عقلي إلى اتجاه آخر:

- أعرف ولكني قصدت أن أثير انتباهك وأن تتذكر ليس فقط السيئ ولكن أن تعلم أن هناك أشياء جميلة. . . هل تعلم أن كل ما احتاجته تلك الطفلة فقط هو أن تجد الداعم والسند؟! سؤالي لك. . لماذا تطلب أنت الحق دائمًا وهو أمامك وترفض تنفيذه؟! فبإمكانك أن تكون أنت الداعم لأشخاص مثل ياسمين، أليس كذلك؟! فهناك الكثير اليوم حولك مثلها ويحتاجون للدعم ولو حتى لفظيا. أليس كذلك يا صديقي؟

- نعم يا ملاك ولكن. .

صمتتُ للحظات وانسحبت عيناي تنظر للأسفل باتجاه المياه وأنا في حيرة، أرغب في القفز لقد تعبت أنهكتني الحياة وأحداثها، أنهكتني الأفكار وأوجاعها، أرغب في النهاية الآن ولكني عاجز حتى عن صنع النهاية. .

أكملت حديثي وأنا أنظر للأسفل:

- أنا. . . أنا شخص مشوش، لقد مات بداخلي الكثير، فهناك حالة من التغير أصابتني. . سيطر الخوف على عقلي وقلبي، لقد أصبح الخوف

قائدي، أخاف الحديث، أخاف المغامرة، أخاف التحدي، أخاف القرار، أخاف المساعدة، أخاف حتى من البوح بمشاعري، أخاف الفكر المتطرف بل أخاف أيضا قول الحق! سكنَ الخوف قلبي وعقلي منذ زمن. . أصبح شيئًا مقدسا أهابه وأهاب تغيره. أذكر أنني تعلمت أن الصامت هو الخير والطيب، أن المتحدث هو الشرير المتطرف، أن الإيمان هو أن تبقى في حالك، أن المحبة هي أن تبقى ضعيفا، أن التربية الحقة هي ألا تتحدث وأن تتقبل التعنيف، أن تظل في ظل الحائط هو قمة الأخلاق على أن تتحرك في منتصف الطريق فتنحرف. . كانت تلاحقني دائما الكلمات: (يسامحه الله. . لسنا مثلهم. . لا تنظر، لا تجب، لا تتكلم، اصمت. . .) وهلم جرا. . . ماذا تريد؟ ماذا تتوقع أن أصبح! دعني وشأني. . قد خُـلقت وصُـنعت كما تمت تربيتي، فأنا صناعة مجتمع.

• • • • •

ثورة التغير / المراهقة!!

فأنا صناعة مجتمع. .
مر الزمن. . ساعات. . أيام، شهور سنوات ما تفعله فقط زيادة للألم وتشويه للصورة. . أصبحت شخصية هشة أو بمصطلح أدق، شخص منسوخ من شخصيات المجتمع.
بدأ جسدي في التغير. . مرحلة المراهقة وما بها من تغيرات جسدية، نفسية وحتى إيمانية. . فحتى جسدي يسير كما يسير الجميع، يتغير كما يتغير الجميع، فقد خط شاربي، وأصبح شكلي أضحوكة، فأنا بهذا الجسد الهزيل وهذا الشارب الغريب أرى شكلي مثيرا للضحك والسخرية، فقررت إزالته ولكن الأهل يرفضون بحجة أنني صغير!! ما هذا التعنت، فشكلي سيئ به، جسدي غير متناسق طولا ووزنا وعرضًا، ماذا يحدث لي؟!! قلبى يدق بمشاعر جديدة وأحاسيس مختلفة لم أشعر بها من قبل: حب، امتلاك، غضب، انتقام، كره واستقلال. . ثورة بداخلي. . حتى الجنس الآخر لم يسلم من ثورتي، فقد راودتني رؤى آخرى اتجاههم، مشاعر ونظرات لم تكن بداخلي من قبل! إعجاب فحب ' اشتياق رغبة!! حتى أصدقاء الأمس تركتهم لأجل أصدقاء اليوم!! والجميع يجذبني تجاهه، فهذا يدعوني للدراسة والتفوق ونبذ الهرج والمرج واللعب وهذا عكسه!! أقيم علاقة مع هذه الفتاة أو تلك، تتقبلني هذه وتلفظني تلك!! هذا المعلم ذكي وذاك أحبه، أم هذا أخافه!! وهذه المعلمة جميلة وجذابة وتلك رجل متنكر في شكل امرأة. إنه عالم آخر دخلته، أحببت الهرج وإثارة المشاكل، كنا شلة

يتحاكى عنها الجميع في المدرسة، كنتُ أتباهى بما أفعل، حينا أتقمص دور البلطجي وحينا التعقل، حينا عاشق ولهان، يفيض القلب واللسان بالكلمات الطيبة وحينا للعنف، حينا للتقرب من الله وأخرى للتطرف!! كنتُ متنقلًا من مجموعة إلى أخرى، حسب الأقوى ومن يتمكن من جذبي وإقناعي. .
كنت أسعى للاستقلال فترة ما، تقمصت دور الطالب البلطجي، من يتسيد المواقف ويتحكم في الجميع، كلمته لا ترد ولا تسد ولا تُـناقش، كنتُ أشاكل ذُباب وجهي، لا أتقبل كلمة من أحد، دائم الشجار، فأنا شخص ناضج، حّر وعاقل لدي القدرة على اتخاذ القرارات، لدي الأفكار الجديدة والقدرة على القيادة بمفردي. . . حتى أتى اليوم الذي نشبتْ فيه المعركة بين طلبة قريتنا وطلبة القرية المجاورة، يا لها من أيام، كنتُ أنا القائد أحمس محرر طيبة من الهكسوس، قمتُ بقيادة مجموعة طلبة من قريتنا وصنعنا كمينا لطلبة القرية الأخرى وتمكنا من صد هجمات العدو، صعدنا إلى الطابق العلوي من المدرسة، فإن الرؤية من أعلى أقوى، وتمكنا من صيد أعدائنا أسفل، فهم في وضع مكشوف لنا فيسهل علينا إصابتهم، تمكنا من صد هجومهم علينا واحتمينا بالطابق العلوي، حتى ظنوا هم أننا سقطنا في خوفنا وتمكنوا منا، فقرروا الخروج من الأماكن التي يحتمون بها، في تلك اللحظة قمنا نحن بمرحلة الهجوم، فقد صاروا في مرمى بصرنا وأصبحوا أهدافا سهلة لنا، تمكنا من قهرهم وإخراجهم خارج المدرسة، فلم يستطيعوا صد هجماتنا وتمكنا من غلق بوابة المدرسة وصرخنا صرخات الانتصار، نعم إنها صرخة انتصار بالنسبة لعقلية مجموعة طلبة من هنا وهناك تعتبر البلطجة نوعا من أنواع تحقيق الذات، فالتربية لم تكن تعتني بتلك النقاط أكثر من توفير المأكل والملبس والمسكن. . أتت سيارة الشرطة وتمكنوا من السيطرة على

جميع الطلبة وأخذنا ليلة في قسم الشرطة لن أنساها طيلة عمري، فتلك الليلة حولتني من بلطجي إلى ولد هادئ متعقل ينظر إلى مستقبله، فما رأيته وما ذقته من صفعات صافحت أنحاء جسمي جعلني أتوب سريعا.
. . وبدأت مرحلة أخرى، فهكذا وجدتُ نفسي متنقلًا من حالة إلى أخرى كما تحملني الريح.
بدأت مرحلة جديدة، مرحلة عاطفية، الحب، قد بدأ العشق وما أجمله، فتلك المرحلة أروع ما يكون، كلها جمال وحب واحتواء، إنها مريم. .

• • • • •

الحب والاحلام!!

إنها مريم.
اسمها مريم. . وجه بريء، عيون زرقاء كالسماء الصافية، نظرة لا تقاوم، صوت يطربني. شعر يتطاير في الهواء كشبكة تصطاد وقد اصطادتني! ما أروعها فتاة! نظرة منها تأخذني إلى عالم آخر، أسرح غصبا ولا أستطيع التحكم في عقلي، أسهر ليالي دون نوم، عقلي لا يتوقف عنها، عيني تأبى مفارقة وجهها. أجلس في الفصل وعيني لا تفارقها، أطرد من الفصل بسبب ارتباكي ومن أين يأتي سوى منها!! لم أجد من أستشيره وأحكي له عما بداخلي سوى آدم، صديقي حقًا آدم، أخبرتهُ بكامل الحكاية وتفاصيلها، كيف أن مريم خطفت مني قلبي، لا أستطيع مقاومة نظراتها ولا رقتها، أرغب طوال الوقت في السير خلفها، أرغب بأن أغني لها أسفل نافذة غرفتها كما كان يفعل عبد الحليم حافظ في أفلامه. وكان آدم نعم الصديق، أعطاني النصائح المفيدة والمنجزة وكانت:
- الخطوة الأولى وهى الأساس الذي سنبني عليه كامل خطتنا هي التسبيل إنه من العلامات السرية الخاطفة لقلوب البنات.
أجبته:
- فقط ((التسبيل))، بسيطة، إن الموضوع أسهل مما كنت أتصور يا صديقي.
ضحك آدم وسخر مني ثم أكمل:
- إنها الخطوة الأولى يا مجهول، ثم نبدأ في تفعيل الخطة، اسمع يا صديقي،.
- تكلم يا كزانوفا.

- كل ما عليك فعله، المرور ذهابًا وإيابًا من أمام منزلها، وكأنك تقضي بعض المهام في هذا الشارع، وخلال تلك الفترة تحاول الحصول على رقم هاتف المنزل وتلك طريقتك أنت، ثم تحاول إرسال بعض الخطابات العاطفية يا صديقي مملوء بكلام العشق والهوى. .

- ومن أين سنتمكن من كتابة خطابات عاطفية يا صديقي؟

- تلك يا مجهول خطوة سهلة، من الأفلام والأغاني، لا تقلق، فتلك مهمتي، ثم ترسل لها تلك الخطابات مع إحدى الصديقات المشتركات بينكما، ولا تنسَ أن تكتب لها في الخطاب أنك ستحاول مهاتفتها ليلا بعد نيام الجميع لتحكي لها عن أشواقك والعشق الذي يلهب قلبك نارًا وحبًا، حينها سيتحقق المراد يا صديقي.

- ولكن ربما ترفض!

- لا تقلق، ربما تظهر أنها غير مهتمة أو مغتاظة ولكن لا تقلق، فإنها ستظهر عكس ما تبطن حتى تتأكد من فعلك، فإذا صمدت ستأتي لك وتعطيك القلب والروح يا صديقي. .

مرت الأيام وانا أسعى بكل الطرق لتنفيذ تعليمات آدم، وأنتظر العشق الممنوع أن يتحقق وتهدأ نار قلبي. . . حتى حدث بالفعل وصارت قصة حب قوية وعاطفية، فنتحدث يوميًا ونرسل الخطابات بكلمات عاطفية تتمثل في الأغاني وما نسمعه من الأفلام والمسلسلات. . تطورت القصة وازداد ارتباطنا، ازداد عشقي وتعلقي بها، امتلكت ما تبقى من قلبي وسيطرت على ما تبقى من عقلي، صرت ملكا لها، صرت خاتمًا في إصبعها، كنت أحاول دائما إسعادها، أظهر لها كالبطل في كل المواقف، الرجل القوي، الواثق.

مرت الأيــام، ولم أعد أحتمل ان نبتعد أو نفترق، ذهبت إلى أبي، وقصصت

له ما جرى وأنني أحبها وأرغب في الارتباط بها قبل أن يرتبط بها أحد، صدني أبي وأمي ورفضوا رفضًا قاطعا بحجة أنني صغير، أخبرتهم أني أُحبها، سخروا مني وأعطوني درسا في الأخلاق، أتذكر يومها كلمات والدي، الذي نظر إلى أمي وهو يتعجب قائلاً:

- أتحب؟ ابنك الصغير يحب!

ثم حول نظره إليّ بغضب شديد أرعبني، جعلني أنتفض من مكاني للخلف، وأكمل:

- حب ماذا يا قليل الآدب، ألا تستحي أن تتكلم هكذا أمامنا، الآن عرفت سر تخلفك في الدراسة وسر انخفاض مستواك في المواد. . يا بني إن الحب يحتاج إلى رجل مسئول، أتفهمني رجل مسئول، يمكنه شراء منزل ويعمل عملا دائما، لديه القدرة على تحمل مسئولية زوجته وأن يتكفل بكامل مصاريفها دون أن يطلب مصروفه من والده! وأنت مازلت تتلقى مصروفك من يدي! ثم من أين أتيت بكلمة أحب وحبيبتي وتلك الكلمات الغريبة، أيها الولد العاق ألا تستحي، ألا تخجل من طلبك هذا!

لقد سمعت عظة طويلة عريضة مليئة بالكلمات والنصائح والتأنيب والترهيب والتعقل والتريث والدعم والرفض، لقد سمعت كل شيء ونقيضه في نفس المحاضرة! كيف هذا، كنت في حالة صدمة، حالة من عدم الفهم لما قاله أبي، كيف يصبح الحب شيئًا حرامًا! كيف يُــطلب مني النسيان وألا أحب. . كيف، كيف ما قاله من الأساس ألا يصح! كيف؟؟

ما أعلمه أن الله خلقنا لأنه يُـحبنا، أليس كذلك؟

ألم يتزوج أبي وأمي لأنهم أحبوا بعضهم البعض؟

ألم ينجباني بمحبة؟

ألا يحبانني؟
كيف بعد كل هذا، لقد تحسنت أخلاقي، وحاولت تحسين مستواي الدراسي، تركت أصدقاء السوء وبعد كل هذا يخبرني بأن أنسى وألا أحب!
إن الحب شيء جميل، هذا ما عايشته!
صار ما صار، حاولت مرارا وتكرارا إقناعهم ولكن لم أنجح. ساء حالي فتواصلت مع مريم وأخبرتها بما حدث وتعاهدنا على أن نظل بعضًا لبعض. . أن تقاوم هي من أجلي وأن أُحارب أنا من أجلها. . أن نجسد ما رأيناه في الأفلام، فحبهم مجرد فيلم لا يتخطى شاشة التلفزيون أو السينما، أما حبنا نحن فحب حقيقي لن ينهزم، ملحمة ستستمر. . توجهت لله، أكثرت صلواتي ودعواتي، أقمت فروض الطاعة، والأمانة والعدل في حياتي وأكثرت من الصلاة لعل الله يستجيب، فهو لا يخيب ظن من سأله، ولا يرد من طلبه، هذا ما تعلمته عنه، فهو يدافع عنا في وقت حروبنا ونحن صامتون، أعلم أنه لن يتركني بل سيقنع والدي وإن وصل الحال إلى إجباره بالموافقة على ارتباطي بمريم.
مرت الأيام ولا جديد، وأنا مستمر في الدعوات والاجتهاد وأنتظر رد الله وموافقة أبي! وفي أحد أيام الانتظار وصل إلى مسامعي بأن مريم تمت خِـطبتها!! نعم تمت خِطبة مريم على الأستاذ كريم مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة!
ماذا حدث؟!
هل تركني الله؟!
تخلى عني، لم تصل صلواتي أو دعواتي إليه، أم إنه لم يتمكن من إقناع والدي، ماذا حدث؟!

أين الوعود والعهود؟! فمريم لم تقاوم حتى! بل بمجرد الطلب تمت الموافقة ووارتفعت أصوات الزغاريد وأُقيمت الأفراح، ألم يَقُل لي والدي كما قال والدها لها، أنني صغير على الزواج وأنها صغيرة على الزواج. ماذا حدث إذن؟! أكبُرت هي فجأة وأصبحت صالحة للزواج!! إذن لماذا لم أكبر أنا أيضًا؟! تبخرت الأحلام وذهبت مريم وصمت الله وانتصر أهلي. تركني الجميع غريقًا في بحر الهوى، ما عدا آدم فقط من ظل بجانبي يخفف عني هول الصدمة!

• • • • •

سريعًا وبدون انتظار أو تركي لحالة اليأس والغرق التي تمتلكني أجابني ملاك:

- أذكر هذا يا مجهول، أُذكر، ألم أكن أنا بجوارك؟ ألم أدعمك؟ لقد كنت عكازًا لك تسنتد إليه وترتكز عليه، ألم يحدث هذا؟

ارتفع صوت ملاك وقد شده الحماس:

- ألم أُخبرك حينها، أنها قصة من قصص، أنها محاولة من العديد، ألم أُخبرك أن الليل قد ينهي اليوم ولكن سينتهي بفجر الغد، ألم أُخبرك أن ألم اليوم سينهيه فرح الغد، وأن الإرادة القوية تُـجرح ولكنها لا تموت بل تُشفى فتعود أقوى وأشد، ألم أُخبرك بأن قيس لم يتمكن من الفوز بليلى ولكنه استمتع بفضيلة الحب، خُلد اسمه حتى اليوم وإلى الأبد، ألم أُخبرك أن خسارة جولة لا تعني نهاية الحرب ولكن القوي من يستطيع إعادة ضبط نفسه والعودة للانتصار من جديد. أتتذكر يا مجهول؟!

قالها وهو ممسكًا بذراعي يهزه بقوة:

- أتذكر يا ملاك أتذكر. .

حررت ذراعي منه وحركت وجهي عنه ناظرًا إلى المياه وكأني أشكو إليها حالي وأكملتُ حديثي:

- ولكنها كانت تجربة صعبة، مؤلمة، صُـدمت، لماذا لم يساندني أهلي. . كان لزامًا عليهم أن يكونوا بجواري، أقلها من أجل سعادتي؟! لكن بهذه البساطة لا تعني لهم سعادتي شيئا!! تركوني وأنا في الصف وحيد واتجهوا إلى الصف المخالف، بهذه البساطة يحدث هذا من أهلي دمي ولحمي، ممن أولى بالدفاع والحرب لأجلي، كانت صدمة شديدة. . . أما الحبيبة، القلب وقلب القلب مريم كيف تخلت عني بتلك السهولة وعن ذاك الحب القوي، أين العهود أين الوعود، أين الحياة والموت وإلى آخر المنتهى، أين الأحاديث والحب والأحلام أين؟! أتعلم. .

قلتها وأنا أسخر من نفسي بابتسامة صفراء حزينة:

- كل هذا في جانب، أما الله. فوحده كان في جانب آخر بعيد جدا عنا، أو بالأحرى عني

لِمَ صمت الله؟!

كيف هانت دموعي أمامه؟!

لِمَ لَمْ يسمع صرخات وآهات قلبي وروحي؟!

ألم يستطع التدخل؟! هل خجل مني، لأنه فشل في مساعدتي؟! أو كانت تلك إرادته من الأساس!!

كما كان، متلهف للحديث، شيطان آراؤه دائمًا حاضرة، وسريعًا ألقى بكلمته:

- لقد أخبرتك حينها ولم تسمع لي يا مجهول، ولكن حان الوقت لتتأكد أنني كنت صادقا معك.

- شيطان. . ألازلت هنا؟ حقا لم تتركني لحظة، كنت قريبًا مني. .

- سأظل دائما معك، لا أستطيع تركك، فأنا أنت وأنت أنا، نعم فأنا من يريك الصورة الحقيقيّة.

قالها وهو يرمق ملاك بنظرة المنتصر الشرير، ثم أعاد لي النظر مكملا حديثه:

- لقد أخبرتك حينها، بأن مريم ستتركك، وأن الله لن يسعفك، وأن والديك سيرفضون، بل سيمنعون أن ترتبط بمن تحب، أخبرتك أن الحب كلمة كاذبة، تُوضع فقط محاولة منا لتبرير ما نتمناه من امتلاك للآخر، ألم يكن يحبك الله؟ إذن، لماذا لم يتدخل من أجل أن يجعلك سعيدا وتحقق ما تتمنى! فأنت لم تتمنى شيئًا خاطئا -إن كان الحب حقيقة!- لكن الحقيقة أنه أراد امتلاكك. فقط، تفعل ما يريده هو، ببساطة، هو أراد ذلك، أراد فشل ذلك الارتباط، فقسى قلب والديك وقلب مريم، حول الظروف كلها لتقف أمامك! إن الحب وهم اخترعه البشر لتحسين صور البحث عن الامتلاك ومن صور الامتلاك الجنس لا أكثر ولا أقل، فالامتلاك هو الأساس يا مجهول، حتى الله نفسه، إرادته في الحياة هو امتلاكك وامتلاك الجميع داخل قبضة يده، أخبرتك ألا تُصدق أن الحب يصنع المعجزات، فإنها كلمة الضعفاء، من أوهموا أنفسهم. . . ألم أخبرك حينها بأنه يمكنك تحقيق ما تتمنى وأن تظفر بمريم!! فقط كل ما عليك، هو استخدام القوة أو فعل يجبر والديك ووالديها على الموافقة، بعض من العنف أو فعل يجبر كلا من أسرتك وأسرتها على الموافقة، ألم تشاهد فيلم البحث عن فضيحة؟

وعلت ضحكته عاليا، ثم أردف قائلا:

- أتذكر؟

- أذكر يا شيطان أذكر، أذكر حينها، رفعت شعار الاحترام والمحبة، وأن المحبة لا تُـقتنص بالقوة، وأن الحب أقوى، وأن الحب سينتصر، وأن الله لن

يرى ابنه في مأزق ويتركه، وأن والدي ووالدتي سيرقون لمحبتي، فهم يحبونني ويعلمون قيمة الحب، أذكر يا شيطان، المشكلة أنني أذكر.
كان ملاك كالعادة حين لا يجد جوابًا مناسبًا يصمت فهو يعلم أنني لن أتركه يرمي الكلمات دون نقاش، وبعد صمت طويل تحدث قائلًا:
- ولكن عليك أن تذكر أيضًا أن آدم صديقك الأمين لم يتركك لحظة ولا طرفة عين، لابد أن تتذكر ويجب ألا تنسى. . هناك لحظات يا مجهول ومواقف يجب ألا تُمحى أو تختفي وسط الأزمات أو الصعاب، إنها تلك اللحظات التي يجب أن تبقى وتدوم ولا تُمحى أو تختفي وسط زحام الذكريات والأحداث المؤلمة والحزينة. . ضع في فكرك وأمام عينك وفي بؤرة قلبك دائمًا الأحداث التي تثقل عزيمتك وتجدد قوتك. من تضيف إلى أملك رجاءً وإلى يأسك نجاةً وإلى عملك حماسا وجهدا. لا تنسَ أو تتناسَ ما يجدد دماءك ويحمي قلبك، لا تنسَ رجاء وتمسك بكل لحظة تعطيك متنفسًا للحياة!! موقف كآدم هذا تذكره دائما، يكفي أنه لم يتركك تسقط.
قالها وصمت، فأجبته باختصار:
- أتذكر يا ملاك، فآدم صديق العمر الحقيقي. .

• • • • •

التعليم والأحلام!!

أتذكر يا ملاك، فآدم صديق العمر الحقيقي. .
في كل مرحلة من مراحل العمر لديَّ أصدقاء حسب المرحلة واحتياجها وأغلب تلك الصداقات صداقات مفروضة أو بحكم الواقع والأحداث الحياتية، ففي فترة ما تجد أصدقائي من الحارة، وأخرى من المدرسة وأخرى من المترددين بدور العبادة وأخرى من فترة التحاقي بالقوات المسلحة، وأخرى من العمل، تلك هي الحياة، سواء شئت أم أبيت، ما عدا آدم، فآدم هو الصديق الصدوق كما يقال، فهو محب أكثر التصاقا من الأخ وهو الخيط المثلوث الذي لا ينقطع سريعًا، صديقي الداعم الأول لي، ظهري الذي يحميني، والعقل الذي يشاركني تفكيري وقراراتي، اليد التي أجدها وقت الاحتياج قبل الاحتفال، البسمة المُنقذة وقت الأحزان، من أرتكز عليه وقتما أحتاج، يفهم ما بداخلي دون كلمة واحدة، يرشدني حينما أُخطئ ويوبخني حينما أصر على خطئي، صادق في مشاعره، صادق في كلماته، صادق معي إلى أبعد الحدود، كان أقرب إليّ من أي شخص آخر، ورغم ذلك كان يحترم خصوصيتي، فلا يحشر أنفه رغمًا عني بل يتدخل فيما سمحت له بالدخول إليه، لم يرغمني على كسر خصوصيتي يومًا، بالفعل هذا هو الصديق.
بدأتْ تلك الصداقة منذ الصِغر، كنا في المدرسة معًا من الابتدائية للإعدادية فالثانوية.

• • • • •

إنني أذكر يوم نتيجة الثانوية العامة عام ٢٠٠٣. .
كنت طالبًا بالصف الثاني الثانوي، شعبة علمي رياضة، كأي طالب كنت ملتزما بحضور المدرسة، هادئ في أغلب الأحيان، شقي في البعض الآخر، حسب مزاج المجموعة، كأي طالب كان اختياري شعبة علمي لأسباب وهي: أن مهن الطبيب والمهندس، هي التي تلقى قبولًا، احتراما ومكانة اجتماعية، كما أنها تجلب لي احترام الكبير قبل الصغير، فهي التي تأتي بالمال والغنى، هذا هو مفهومي حينئذ، بل أقول مفهوم الجميع حتى الآن، ذلك المفهوم اللعين الذي ينحصر ما بين ((القيمة المجتمعية والمال)) لا شيء آخر، فلا معنى لتحقيق الذات، ولا معنى لإيجاد النفس، لا معنى للحلم الشخصي، فما هو قيمة أن تحقق ذاتك وأن تفعل ما تتمنى وأن تكون نفسك، ببساطة. . لا شيء!! هذا هو المجتمع اللعين الذي أطاح بإنسانية الفرد وقيمتها، فأنت ورقة في شجرة لا حياة ولا قيمة لك دونها، فالحياة للشجرة والموت لك!! فلننسَ ما قلت فتلك هرطقة وفجور في نظر المجتمع اللعين، ولنعود إلى تلك الحالة الرتيبة، تلك الحالة التي تعتمد على النسخ، فأنا طالب مثلي مثل أي طالب وبيتي وعائلتي مثل أي عائلة وبيت، فلا نختلف عنهم، هناك صبغة للجميع يصطبغ بها. . الاستيقاظ، التعليم، العمل، الارتباط، الإنجاب و. . إلخ، ثم الموت، أعتدت الذهاب للمدرسة كل صباح أنا وآدم والعودة بعد نهاية اليوم الدراسي، ففي كل يوم نخرج من المنزل للمدرسة، ذلك المكان الغريب، نُجبر كل يوم بحمل عدد من الكتب، تتسبب في انحناء أجسادنا، وأن نصطف داخل طابور مرددين ما يقولون، ثم الذهاب للفصل، غرفة تتسع لعشرة أشخاص، نُحشر فيها مع أكثر من خمسين طالب آخر، نختنق يوميًا ولا أحد يهتم، ثم واجب لينهي أمالنا في الفوز ببعض الوقت في

المنزل لممارسة اللعب أو الخروج مع الأصدقاء. . أيام تشبه بعضها البعض. .
فيومنا الدراسي هو عبارة عن تعاقب مجموعة من الأشخاص الذين لديهم بعض المعلومات التي يحفظونها، فيرددونها علينا بشكل ثابت لا معنى له، أبيات شعر لا نفهم فيهَا شيئًا ثم إعراب لا نعي ما هو، هجاء فحب فكلمات أعجمية لا نفهمها، ويطلبوا منا إجابة للأسئلة التي يطروحها علينا، والذهاب إلى الدروس الخصوصية، تلك الدروس التي تزيدنا بهيمية أكثر وغباء أكثر، فنعود للبيت منهكي الجسد، معدومي الحس، مهمشي العقل، منتهي الصلاحية، وهكذا حياتنا، ما بين المدرسة والأصدقاء الذين لا يهتمون إلا بالهرج والمرج والبنات والرقص.
أتذكر في أحد أيام الدراسة حدثت مشادة بين أحد الطلبة وأحد المعلمين تركت فيّ أثرًا شديدًا حتى اليوم، رغم أنه حادث متكرر!!
في يوم الاثنين وقد بدأت حصة اللغة الإنجيلزيّة -حصة المعأناة، لا نفهم فيها شيئًا- دخل المعلم كريم وهو مخيف الوجه، فحاجباه ترتسمان ،١١٠ والأنف يعلو ويهبط قائلًا:
- good morning أخرجوا الـ home work المتروك لكم من أمس وضعوه أمامكم أعلى الـ disk سأمر عليكم فردًا فردًا لتصحيحه، ومن لم ينجزه فليخرج هنا خارجًا إلى آخر الفصل رافعًا يده وناظرًا للحائط عقابا له.
خرج مجموعة من الطلبة وفعلوا كما قال لهم، ماعدا مصطفى، اعترض ولم يرفع يده أو ينظر إلى الحائط، فحدثت المشادة بينهم، كان مصطفى عفيا بعض الشيء وفتى عنيفا، أصر على عدم رفع يده، وأصر المعلم كريم على ضربه، فحدث الصدام بينهما لينتهي الموقف بتدخل مدير المدرسة

ومطالبته لمصطفى بأن يحضر ولي أمره. . . لم تمر سوى نصف ساعة وحضر ولي أمر مصطفى ولم ينتظر لليوم التالي، حضر سريعًا بعد اتصال مصطفى به في نفس الوقت!! وحدث ما حدث، حالة من الشجار مع المعلم كريم انتهت بخروج مصطفى ووالده من المدرسة وألسنتهم تقذف السباب والشتائم، لنسمع في اليوم التالي، بأن والد مصطفى قد تجمع هو وعائلته وانتظروا المعلم كريم خارج المدرسة وانهالوا عليه ضربًا وتوعدوه بمثل هذا وأكثر إذا تعرض لابنهم مرة أخرى، تلك الحادثة أثارت الرعب والخوف في قلوب المعلمين ومدير المدرسة، مما جعل باقي المعلمين في حالة من الخوف من الطلبة وآبائهم وتسبب ذلك في الإهمال التعليمي وتهكم الطلبة على المعلمين. . . حالة من الفوضى تعم المدارس حتى اليوم.

أما بعض المعلمين فعندهم القدرة على ضبط النفس ومعايشة عملهم بحرفية وأمانة ولكن المشكلة لم تعد العلاقة بين الطالب والمعلم كما كانت سابقًا، أما المدرسين الأفاضل أصحاب الدروس الخصوصية فهم في عالم آخر، عالم تجاري يعتمد على العرض والطلب وحسن المعاملة.

أنا في ذلك كله جزء من قطيع يدعى الشلة، لست أقواهم لذا فأنا من التابعين، يجب أن أفعل كما يفعلون وإلا. . .

• • • • •

أنا جزء من قطيع يُدعى الشلة، لست أقواهم لذا فأنا من التابعين، يجب أن أفعل كما يفعلون وإلا. . .

أنا جزء من مجتمع أصغر ما فيه هو الحارة. أتذكر تلك الحارة الصغيرة بمنازلها في قرية متوسطة الحال، منزلنا على ناصية بشارع رئيسي، للدخول إلى منزلنا، هناك باب كبير على الشارع الرئيسي وباب فرعي في داخل الحارة، منازل الحارة يتراوح أدوارها ما بين الأول والثاني والثالث، ومنزل أو أثنين تتراوح أدوارهم ما بين الخامس والسادس، ستجد الاختتلاف أيضًا ما بين بعض المنازل القديمة التي بُنيت بالطوب والطين، والبعض الآخر بالخرسانة المسلحة، ستجد بعضًا منها متهالك والآخر قوي، جميل الشكل، بعض الواجهات مقززة والآخر متزين بالطوب الفرعوني والطوب الحراري والحجر الصناعي، مع الأعمدة والتيجان الديكورية والشرفات الواسعة. .

ستجد بعض العربات الكارو وبجوارها سيارة خاصة من السيارات باهظة الثمن!! ستجد أطفالًا بلا تعليم وآخرين بمدارس خاصة، وبعض من الشباب دارسي الكليات المرتفعة في التنسيق كالهندسة والتربية والعلوم عاطلين بدون عمل! وأخرون بدون شهادات علمية ويعملون بأفضل الأماكن! لا تندهش كل ما فعلوه فقط هو دفع مبلغ مالي مقابل أن يعملوا في إحدى الوظائف المُريحة كشركات البترول أو الكهرباء، بالمال يمكن صناعة أي شي.

حالة من التضاد، ما بين الشكل والقيمة والمستوى المعيشي، ستجد كل هذا في الحارة، حتى الأشخاص أنفسهم، ستجد المثقف والجاهل، المدني والريفي، المتحفظ والمتحرر، الأجداد بالأفكار والعادات الموروثة، والشباب المتحرر والأفكار المتجددة، ما بين الأمهات بملابس الستينات والسبعينات، وبنات الجيل الحالي بملابسهم التي تعتمد على الموضة والماركة، حالة من الازدحام

الفكري والنفسي والبشري أيضًا، هذه هي الحارة التي أحيا بها. وبالطبع لن أستطيع أن أغفل ذكر الحالة الدينية، فتلك المنطقة لها تنوع ديني كبير، ومع ذلك تجد الحالة الأخلاقية مترهلة ومتذبذبة!! يوجد بالقرب من منزلنا من الناحية الشرقية مسجد كبير، ومن الناحية الشمالية كنيسة، تمتلئ قريتنا باختلاف الأفكار الدينية، فمنها المسلم والمسيحي، ستجد من المسلمين من هو أزهري، سلفي، إخوان، والمسيحين، ستجد الأرثوذكسي، الكاثوليكي، البروتستانتي، فكما ترى التنوع الديني، وتنوّع طوائفه.

تربيتُ في دور عبادة ومواظبة على الفروض والطقوس الدينية، وعلى الفكر الإيماني بالله وصادقتُ من المسيحيين والمسلمين، قرأتُ في الكتب المسيحية والإسلامية، سمعتُ خطبًا وعظات لا عدد لها، قرأتُ في الفلسفة، وفي علم النفس، أحببتُ التنمية البشرية، تنوعت قدر ما تمكنت، حاولت الاكتشاف والمعرفة والتقرب من كل فكر ورؤية الجيد والسيئ، حاولت بناء عالم خاص بي، حاولت!!

• • • • •

الأحلام!!

حاولت بناء عالم خاص بي، حاولت!
اجتهدت قدر ما تمكنت، وحان وقت النتيجة، تلك الفترة التي تعتبر وبحق الجحيم لكل طالب، وقد كان جحيمي ونعيمي أيضًا!! وللمرة الأولى منذ زمن يخيبُ أملي ويسقط جهدي وتعبي أرضًا، وإذ بأبي وجدتُ كفه يصافح وجهي. . حالة من الدوار أصابتني، حالة من الغم والهم، الحزن يسيطر على وجوه الجميع، أمي، إخوتي، حالة من انعدام الحول والقوة، تبدو من جيراننا نحوي، وبعضًا من صوت أبي تمكنت من سماعه:
- لماذا يا أيها الولد الساذج، أيها الولد العار، أضعت مالي وجهدي وسهري عليك بلا معنى وفي النهاية تأتيني بنسبة نجاح بالكاد تتخطى الـ ٦٠ ٪!
لم أدر بشيء بعدها إلا وأنا في سريري وأمي تحتضني وفي يدي محاليل طبية. . فهمت حينها ما حدث، من الواضح أنني سقطتُ مُغشيًا عليّ، وقد كان الطبيب مُنقذي من تعبي ومن أبي، وقد علمتُ أيضًا أن ما أصابني قد أصاب آدم!! فلم يتمكن هو أيضًا من عبور الثانوية العامة بأمان.
ظللتُ على هذ الحالة بضعة أيام، ولا حديث بيني وبين أبي، إلا أنه كان كل يوم يطمئن على حالتي وصحتي دون الاقتراب مني فهو غاضب حقًا من فشلي وفشل حلمه. لا أدري ما هو التفكير في تلك اللحظات، التي يكون فيها الفعل عكس الإحساس!! فهو يطمئن دون الاقتراب، يحب دون إظهار، يشفق دون رحمة! لا أدري إن كان هذا من حقه أم لا، فهو يشعر بأنني أنهيت حلمه، وأنني من المفترض بي أن أحقق حلمه وأُمنيته هو!! فمطلوب مني تحقيق ما فشل هو فيه!! لم يكن حلمي أبدًا أن أكون طبيبًا

أو مهندسًا، فليست لديّ ميول علمية بتاتا، ما أحببته واكتشفته فيما بعد هو الموسيقى والفن! ولتتذكر، الموسيقى والفن لا معنى لهم في مجتمعنا -في بداياتك فقط!- فلن تجد الدعم، بل السخرية والغضب!! ولكن إذا نجحت فأنت أعظم من أي عظيم!! ماهذا التناقض وتلك الازدواجية في المعايير، كما قُلت هذا هو المجتمع اللعين!!

منذ ذلك الحين، وأنا بدأت رحلة تغير شاملة كاملة، فما معنى أن أكون لوحة يشكلها الأخرون كما يشاؤون، حتى ولو كانوا أهلي، أين أنا؟! وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة التساؤلات والبحث عن الهوية والنفس!!

كنتُ حتى يوم النتيجة وما حدث، شخص بلا ملامح خاصة، أو صفات مميزة، بل كأي شخص روتيني، كأي فرد في المجتمع، ترس في ماكينة، تلك حياتي، يتم تشكيلي كما يشاء من يتحكم في حياتي، ففي المنزل أبي، له الحق في أن يختار لي ملبسي، ماذا أحب في أكلي، ماذا أقول، ومتى أصمت، متى أبتسم ومتى أحزن، متى أخرج ومتى أدخل، ما هي الأسئلة التي أسألها وما هي الأسئلة التي أمتنع عنها، أليس هو من يتحنن عليّ، فهو من يتعب ليوفر لي مأكلي، مشربي، ملبسي ومسكني! مقابل الرعاية أصبح لهم عبدًا، نعم، فالعبودية هي أن تصبح بلا إرادة، وهذا ما يفعلوه، يسلبونني حريتي، لماذا؟ لأنهم أسرتي، وهم أعلم مني بما هو أفضل لي! تلك المعادلة الغريبة، لا أفهمها! وأنا فإما أتقبل هذا وإلا. .

ذلك هو المنزل. لا أعلم لماذا أنا مُلزم بأن أحب أبي وأمي وإخوتي. . لا أدري لما؟! هل في الحب والمشاعر فرض. . . لماذا مُجبر على فعل ما يفرضه المجتمع على الجميع، لماذا يُطلب مني أن أصبح رقمًا في تعداد المجتمع، لماذا يجب أن أفعل كما يفعل الجميع دون سؤال أو نقاش أو رأي! أنا لا أكره

أحدًا ولكن كل ما أطلبهُ أن أحب بدافع الحب من داخلي، أن أحب أسرتي، أصدقائي أقاربي بدافع الحب داخلي وليس بدافع أنه يجب أن أحبهم!! أن أتقبل أمرًا ما بدافع اختياري وإرادتي وليس بدافع القهر والخوف. . لماذا يُطلب مني أن أعادي من يعادون، وأن أصادق من يصادقون، أن ألبس كما يلبسون، وأن أشرب كما يشربون، أن أعبد ما يعبدون، وأمارس ما يُمارسون، لماذا يجب عليّ أن اتقبل ما يتقبلون، وأرفض ما يرفضون، أن أفكر كما يفكرون، لماذا يجب أن أصبح نسخة مكررة، دون أي تذمر، أن أصبح رقمًا أتى إلى هذا العالم وذهب، دون أي دور أو رأي!!

نعودُ إلى أيام الدراسة. . فشلنا أنا وآدم معا، لم نتمكن من الحصول على مجموع مرتفع بالثانوية العامة ومعًا أيضًا عانينا من الأهالي ومن الجيران وكل من ((هب ودب))، فكل شخص له معرفة بنا أو بدون كان يلقي كلمته بتحطيمه لكل ذرة أمل داخلنا ويختلف الأفراد فهناك من يستهزئ وهناك من يخفف وآخرون يؤكدون أن ذلك ما كان سيحدث فهذا آخر مستوانا العقلي وذلك المستوى الدراسي الحقيقي لنا. . . ولكـــــن معًا أيضا قررنا أن نثبت للجميع أننا قادران على النجاح وتحقيق ((أحلامهم))، فلسنا بفشلة أو اغبياء بل لدينا القدرة على النجاح وتخطى الأزمات، فقد كان لدينا الإيمان بأن خسارة جولة لا يعني خسارة الحرب، فما زالت أمامنا الحرب مليئة بالجولات، بحثنا عن طرق أخرى لمحاولة تجنب فشل الثانوية العامة، كيف يمكن أن نُعيد أنفسنا إلى طريق النجاح وكليات القمة، تمكنا من الحصول على معلومات عن جامعات خاصة ولكن تكاليفها باهظة بالإضافة إلى غضب الأهل الكبير منا بعد الفشل الذريع وغير المتوقع في الثانوية العامة، لم نيأس، بحثنا، سألنا، واكتشفنا بأن هناك أحد المعاهد

الحكومية يمكن أن نضعه في أولوية رغباتنا ومنه إلى كلية الهندسة، فعلنا هذا وتمكنا من الفوز به حيث كانت درجاتنا بالثانوية العامة كافية للمرور إلى هذا المعهد، معهد المساحة والري، بدأنا الدراسة في ذلك المعهد، كنا معًا، أعدنا ترتيب أولوياتنا كي نتمكن من العودة إلى الظهور ببريق النجاح والتميز، كنا داعمين بعضنا لبعض بعد تخلي الجميع عنا، كنا مُشجعين بعضنا لبعض في وسط الاستخفاف بنا وبإمكانياتنا وبأننا سنفشل سريعًا، عملنا بالمثل القائل: -حافظ على شعاع النور الصغير الذي بداخلك، لعله يهديك إلى الطريق-. . وتمكنا من العودة بأعلى الدرجات والمرور إلى كلية الهندسة، لولا آدم ما تمكنت من هذا، فقد كان صوت الحياة بالنسبة لي، إنه نافذة النور في أعماق الظلام ونجدة الغريق في تخبط الأمواج، وصوت الأمل حين يعُم اليأس والاستسلام، إنه صديق الحياة بكل ما تحمل الكلمة من معنى وقيمة. ثم بدأت المرحلة الجامعية. .

• • • • •

الجامعة

بدأتُ الدراسة الجامعية، وأول أيامي بالجامعة كنت منبهرًا بالمباني وعدد الطلبة الكثير جدا، تلك الوجوه المختلفة عن زملاء الثانوية، تلك الملابس الغريبة، وتلك الطالبات الأنيقات وتلك اللهجات المختلفة عن لهجتي، ما هذه الحرية للفتيات وهؤلاء الفتيان المملوئين نشاطًا وحركة، لا يهابون أحدا، ما هذا الجمال! ما هذا العالم الغريب الجميل، المُخيف، أشعر كأنني نقطة في بحر. بدأنا الدراسة الجامعية بكلية الهندسة -أحلام الأهل والقيمة التي تعطيك مكانة في المجتمع- كنت أسمع عن الجامعة كثيرا أيام الثانوية من المعلمين والأهل، وكنت أتخيلها وأرسمها في خيالي صرحًا كبيرا ومليئا بالعلماء وبالمعرفة والعلم، كنت أسمع أن الطالب يذهب للجامعة بعقل، ويخرج منها بعقل مختلف أكثر انفتاحًا وفهمًا.

التزمنا بالجامعة بقدر ما تمكنا. ومرت الأيام وكالعادة في ذلك البلد وهذا المجتمع كنت أتأكد أن كل شيء مزيف، فلا الجامعة تعني شيئا ولا المعلمين أفاضل، أو علماء، أن التعليم الجامعي ما هو إلا صورة أخرى من صور التعليم الأساسي، فهو لا يختلف كثيرا، حالة من حالات حشو الدماغ بمعلومات نظرية بحتة، معلومات تعتمد فقط على الحفظ والتكرار ولا مجال للبحث أو السؤال أو الاستكشاف، تعلمتُ أن أفهم كل شخص، وأعي الكلمات والمعاني والغمزات، تعلمت أن أفهم كل أستاذ ماذا يريد وإلى ماذا يُلمح، رأيت المعلم الفاضل، المهتم بعمله وعلمه والأمانة في دروسه وشروحاته، رأيت الباحث عن عمل ثروة من المال، عن طريق بيع المذكرات والكتب،

أو الدروس الخصوصية وبيع الامتحانات، رأيت الأستاذ المتحرش والطالبات الباحثات عن النجاح دون جُهد مبذول سوى بيع الهوى، اكتشفت أيضًا، أن ما كان يُطلب منّا من أعمال منزلية أو امتحانات أو رسومات أو مشاريع، كلها بلا استثناء جاهزة الحل ما علينا إلا أن ننسخها ونقدمها للأستاذ الجامعي وهو يعرف أننا ننسخها، بل قد يكون هو صاحب الإجابات والمذكرات التي ننسخ منها، فهي عملية تجارية بحتة فالأستاذ الفاضل يكتب المذكرة ويتركها بإحدى المكتبات المعروفة والمتعاقد معها، فمقابل كل مذكرة مبلغ متفق عليه من المال بينهم، وما على الطالب إلا التواصل مع المكتبة وشراء المذكرة سيجد بها الأسئلة والأجوبة والاختبارات، أما الرسومات فأحد الطلبة يتكفل برسم اللوحات وما على الباقي إلا نسخها وما أدراك النسخ، حالة من الإبداع وتسمى ((الفونسة))، فهناك من يحضر مكتب سطحه العلوي عبارة عن لوح زجاج شفاف، ويلصق عليه اللوحة المنسوخة ثم يلصق أعلاها مباشرة اللوحة التي سينسُخ إليها، ويثبت بالمكتب أسفل اللوح الزجاجي مصباحا متصلا بالتيار الكهربائي وبالتالي فإضاءة ذلك المصباح تتسبب في اختراق اللوح الزجاجي وإظهار رسومات اللوحة المنسوخة باللوحة المثبتة أعلاها وما على الطالب إلا أن يقوم بالرسم فوق الرسومات الظاهرة ويتم إنجار الرسم دون وعي أو فهم أو تحليل ويتم الإنجاز في وقت قياسي جدا، إنها حالة من الإبداع، استغلال القدرات العقلية ولكن بشكل غير مباشر وبشكل غير مثالي، فبدل إرهاق العقل واكتشاف المعلومات وتنمية القدرات الخاصة بالمواد الدراسية فنقوم باستغلالها في اختراع طُرق لتوفير الوقت والجُهد والبحث، إنها عملية معقدة فالتعليم غير مرغوب وغير محبوب، هذا ما انطبع داخل عقولنا وأفكارنا ونُـحت بصخور ثوابتنا.

عرفتُ أسماء الأماكن بالجامعة، أتذكر ذلك الشارع الغريب المُسمى بشارع الحب، لم أكن أعرف. . . ففي ذلك اليوم لم يأتِ آدم إلى الجامعة فقد كان مريضًا وفي ذلك اليوم الطويل من المحاضرات جلستُ لأتناول وجبة غذائية، فعلى مدار اليوم لم أتذوق شيئًا، وقتها كنت وجبة ساخنة لسخرية أصدقائي. . . أتذكر مؤمن -كان مؤمن أحد الأصدقاء الذين تعرفنا عليهم أنا وآدم في بداية تواجدنا بالكلية، شخص مهذب وصاحب قيم ومبادئ، قريب من الله، متفوق دراسيًا، أمين في كلماته وآرائه، كان مؤمن شخصية تستحق الاهتمام والاحترام- ظل يضحك طويلًا وهو لا يستطيع تمالك نفسه، قائلا لي:

- ماذا بك يا صديقي، ألهذه الدرجة لم ترَ فتيات قبل ذلك، ألم تقم أي علاقة مع أي فتاة؟!

أجبته وانا أستعجب تلك الكلمات:

- ماذا تعني يا مؤمن؟؟

- لا أقصد شيئًا، ولكن هذا الشارع لا يجلس فيه أحد إلا ومعه صديقته، أتفهمني!!

هززت رأسي بمعنى أنني لا أفهم واجبته:

- لا لا أفهم، ماذا تقصد بصديقته ولماذا من الأساس لابد من وجود صديقته معه؟؟!

- يا مجهول، هذا الشارع هو شارع الحب.

كان ذلك الشارع يفصل بين كليتي الهندسة والحقوق.

- ذلك الشارع لا يجلس فيه إلا العاشقون، عاشق ومعشوق، شاب وفتاة، ذلك الشارع فقط للأحباب، ليس ذلك فقط، ولكن. .

- ولكن ماذا؟!!
- ولكن أيضا للمتزوجون عرفيًا، فهمت يا صديقي؟! أحذر من هذا الشارع أن تجلس به مرة أخرى، فمن يجلس هنا، إما عاشق أو متزوج أو باحث عن حل مشاكل زواجه!
صُعقت وانتفضت واقفًا:
- فهمتُ، لماذا لم تخبرني من البداية؟ الآن علمت لماذا ينظر إليّ الجميع نظرة غريبة!
- بالطبع لابد أن ينظروا إليك نظرة غريبة ألست جالس وحيدًا، أيها الأبله.
بالطبع انتهى الحوار بسخرية وضحك، انتهى اليوم وعُدنا إلى منازلنا، تاركين اليوم المنتهي بالجامعة يُــكمل مع العاشقين.

• • • • •

في أحد الأيام ذهبتُ إلى المحاضرة في الثامنة صباحًا، ولكن تأخرتُ قليلًا، حوالي خمسة عشر دقيقة بالطبع كنت أنا وآدم، وذلك بسبب وضع النقل، فالبلد يعاني من أزمة مواصلات ولا أحد يجيب، نعاني من قلة العربات ومن زيادة الأجرة، شكونا كثيرًا ولا أحد يسمع، ننبح صوتنا ولا مجيب، في ذلك اليوم انتظرنا كثيرًا بموقف السيارات ننتظر ظهور أي سيارة لنذهب إلى الجامعة ونتمكن من حضور تلك المحاضرات، وفجأة ظهرت إحدى السيارات من بعيد، صرخ آدم قائلًا:
- إنها المعجزة توجد سيارة قادمة من الناحية الشمالية، انظر يا مجهول.
نظرتُ إلى تلك الناحية وبالفعل ظهرت سيارة صرخت أنا أيضًا:
- نعم معجزة يا آدم.
وفي تلك اللحظة لم أكمل حيث جذبني آدم من يدي راكضًا في اتجاه السيارة

قائلًا:
- ليس وقت حديث، اركض بأقصى قدرة ممكنة لديك، لابد لنا أن نتواجد داخل العربة وإلا. . .
لم يكمل آدم حديثه ففي تلك اللحظة ركض أحد الأشخاص ناحية السيارة وعينيك لا ترى إلا النور، اندفع الجميع، رجال، سيدات، شباب، فتيات، الجميع بدون استثناء صغير أو كبير ومن لا يركض يُـحمل وسط الآخرين وليس له حول أو قوة، وجدتُ نفسي وآدم داخل العربة وسط الاندفاع البشري القوي، وحينها وجدتُ آدم يـُــقبل يده وجهًا وظهرًا شاكرًا الله على أننا وجدنا مكانا، وبالطبع فعلتُ أنا مثله. ثم ضحكنا، ولما لا، أن تجد سيارة وأن تتمكن من اللحاق بها هذا في حد ذاته إعجاز كبير. . ولا أخفي عليك ما حدث بداخل السيارة فذلك أيضًا شيء طبيعي ولا مستحدث فيه، جلستُ بجوار أحد الأشخاص من الذين يهتمون بالهاتف كثيرًا، كان يكلم أحد أقاربه:
- أهلا يا مسعود، نعم، ارفع صوتك قليلًا!
كان يقولها وهو يرفع صوته دون مراعاة لآذاننا، لا أعلم من الذي لا يسمع هو أم مسعود!
- نعم يا مسعود، نعم ستجد الخمسة آلاف جنيهًا بدرج الكوميدينو الثاني، وسيأتي إليك بعد نصف ساعة الحاج مرسي طالبًا إياهم. ماذا؟؟ ارفع صوتك!
قالها أيضًا وهو يرفع صوته:
- نعم أعطه المال واجعله يتأكد منهم أمامك.
بالطبع طال الحوار حتى وصلنا الجامعة، فعادةً ما نسمع أحاديث وأحاديث وأسرار لبشر في العلن من يعمل لدى من في المنزل.

ومن الفتاة التي ستتزوج ذلك الشاب.
ومن هي المراة التي تم طلاقها أمس.
وذلك الشاب الذي أمسك وهو يتلصص على تلك الفتاة.
وذلك الرجل الذي لم يدفع قسط المال الذي جاء ميعاده.
إنها بالفعل حالة من الفضائح والغباء المستمر داخل سيارات الميكروباص.
وصلنا الجامعة متأخرين، بالطبع لم نصل في الميعاد المحدد لبدء الدرس المحدد، فوصلتُ إلى قاعة التدريس في الثامنة والربع بمفردي فآدم كان أكثر تفهما وأكثر حكمة عني في الحياة فهو رفض أن يدخل إلى قاعة التدريس وذهب إلى كافتيريا الكلية وأخبرني:
- سأنتظرك في كافتيرا الكلية يا مجهول، فلن أهين نفسي، فلتذهب المحاضرة إلى الجحيم يا صديق، وإن أردت نصيحتي لا تذهب أنت أيضًا وتعال معي نحتسي بعض الشاي.
ابتسمت وأخبرته:
- لا يا صديق سأذهب، فإني التحقتُ بالجامعة للتعليم وليس للتسكع يا متسكع.
ابتسم آدم وأنا أيضًا، ثم نبهني آدم للوقت:
- إذن فلتذهب، فقد تأخرت كثيرًا وهذا الدكتور حسين، فليكن الله في عونك، اذهب.
نظرتُ إلى الساعة وجدتني متأخرًا فركضتُ سريعًا ناحية القاعة، ذهبتُ وحدي. . وطرقتُ الباب وعلى شفتيّ ابتسامة هادئة بسيطة وإذا بالدكتور حسين تعلو وجهه ابتسامة غادرة، أعلمها جيدًا وأعلم أن القادم خلفها صعب، ترك السبورة ونظر إليّ قائلًا:

- أهلًا وسهلًا، لماذا أرهقت نفسك وحضرت مبكرًا؟! لا تقلق وتجهد نفسك، استيقظ على راحتك، احضر وقتما تشاء.

حاولت أن أخفي خجلي وارتباكي من إهانتي، إنها العادة في الإهانة، هذا هو التعامل مع طالب العلم، فلا وجود لمبرر، حتى وإن كان مبررا مقبولا لأن خطأ التأخير ليس مني، فهذه أزمة دولة، فماذا أفعل أنا. . . حاولت أن أستجمع قواي وأن أظهر بأنني قوي وحاولت وضع المبرر المقبول، تحدثت قائلًا:

- أنا أأأأأأأنـــــــــــاا، يا دكتور، أعتذر فالمواصـــــ، إنها أزمة وليس بيدي حلها، فهي معاناة دولة، وأنت أعلم يا أستاذ. . .

نظر إليَّ نظرة، شعرتُ بها وبالكم الذي تحتويه من الاحتقار والتقليل، إحساس سيئ جدًا أن يتم إحراجك وأنت في سن العشرين، إحساس مؤلم أن تشعر بالقهر ولا تستطيع أن تقاوم، أن تذبح وما تفعله هو فقط أن تدمع، أن تموت وتستسلم، كيف نعامل هكذا، ألست إنسانًا؟ أشعر و أتألم، أحزن وأخجل، أرتبك، أليس لديَّ كرامة؟ ألا يوجد تعامل ولو بقليل من الاحترام، كيف يكون التعامل هكذا في وسط، وسط الفضيلة والتحضر!

وفجأة وجدت أحد الزملاء يتحدث بصوت عال موجهًا كلامه للأستاذ حسين:

- يا أستاذ حسين، ما ذنب مجهول، إنه ذنب دولة بحالها، فماذا يفعل هو! فهو لا يمتلك سيارة خاصة كسيارتك كي يتمكن من الخروج مبكرًا والقدوم في الميعاد، ولا يمكنه في ذات الوقت التحكم في أزمة النقل بالدولة! فأرجو أن تكن رحيم به ورحيم بنا، لابد من السماح بالتأخر بعض الوقت لظروف الطرق. وشكرا.

كان هذا مؤمن، كان يدافع عن الحق، كما أخبرتكم قبلًا صاحب قيم ومبادئ.

شعرت بقليل من الاطمئنان بعدما وجدت من في صفي، ولكن كالعادة، تمت إهانتي أنا وأيضًا مؤمن، ناله من الحب جانب، ثم أكملنا المحاضرة، أما أنا فكنت مختنقًا، كيف أهتم أو أسمع أو حتى أستوعب معلومة بعد تلك الإهانات. فما أفعله أن أؤدي واجبي في الحضور.

الأستاذ حمدي، لا يمكنني تجاهله، كان أستاذا كبيرا وذا سمعة طيبة وعلم ينتفع به، كان يبدأ محاضراته بالتحدث عن الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لدولتنا العظيمة:

- أيها الطلاب أتعلمون، إن دولتنا مليئة بالسوء والتدني، فكل شيء بها يتحرك بضمير ميت، لقد انحدرنا إلى القاع بتلك السياسات العقيمة والعمياء التي لا ترى إلا مصلحتها فقط، فوزير التربية والتعليم الأخير، هذا الذي اختاروه لا يفهم شيئًا بتاتًا، إنها المصالح والمجاملات على حساب الوطن والمواطن، ليس هذا وفقط، أتعلمون أنه سارق ولص؟ فعليه من القضايا ما لا يحصى ولا يعد.

استعدل بذلته وسحب يد قميصه المختفية أسفل البذلة ثم أكمل كلامه:

- ناهيك عن رئيس مجلس الشعب، هذا المعتوه المريض، فقط كل ما يفعله هو تنفيذ أوامر الحكومة، فعليه أن يمرر هذا القانون وأن يمنع هذا القانون، لا وجود للرقابة أو البحث عن مصالح المواطن أو الفقراء، هل ينظر أحد إلى المواطن؟ هل ينظر أحد إليكم؟ إنكم في بؤرة النسيان، هل تحدّث أحد عن التعليم ومشاكله؟ كم أنتم، عددكم يفوق الثلاثمائة شخص وتدرسون في قاعة لا تحتوي على مكيفات ولا حتى إضاءة كافية، قاعة لا تستطيع أن تستقبل عددكم ولولا غياب الكثير من منكم لما كانت تلك القاعة لتستوعب أعدادكم.

ويجيبه مؤمن -كان دائم المشاركة وتشعر بأنه ثورجي، صاحب نظرية ورؤى ومبادئ حية، نحتاج إلى أمثال مؤمن كثيرا في بلادنا:
- لابد من ثورة، لابد من إعلان الرفض بشكل علني وواضح، نحتاج يا أستاذ إلى تكتل قوي وآراء قوية وواضحة للوقوف أمام هذا الفساد الذي استشرى وانتشر.
- نعم يا مؤمن نحتاج إلى ما أشرت إليه، أتعلم؟ فلتضف عندك وأضيفوا إلى القائمة أيها الطلاب، التكريم للراقصات بوزارة الثقافة، فهذة الراقصة أو تلك هي المثل الأعلى للمرأة المصرية، افرحوا يا فتيات فمثلكن الأعلى راقصات، ستأتونا غدًا إلى الجامعة ببدل رقص.
وانفجرت هنا القاعة ضحكًا وتصفيرًا وتأييدًا لذلك، مما اضطر الدكتور حمدي إلى التهديد للطلبة بالقسوة فعاد الهدوء مرة أخرى، هكذا نحن لا نأتي إلا بالإهانة والقوة، ثم أكمل:
- التخبط في كل شيء، دولة بلا معنى ولا رؤية للارتقاء أو النهوض بشباب أمثالكم، فأنتم في خانة النسيان والترك، بل أقول أنتم في خانة التغيب الثقافي، لا، انظروا إلى أنفسكم وإلى ما ترتدون، فلم أعد أستطيع التفريق بين الولد والفتاة. .
وبالطبع تكتمل المحاضرة في لعن الدولة وكل المسئولين ورأس الفساد، ونفاجأ في نهاية المحاضرة بـــــ:
- المذكرة ستجدونها في المكتب، تكلفتها خمسون جنيه، لابد أن تبتاعوها، لكي تتمكنوا من متابعة الدروس، فسوف نقوم بالشرح منها، حتى لا تسقط منك أي معلومات، وعلى الهامش تذكروا أن تتركوا للعم شوقي خمسة جنيهات لتعبه معنا، ولا تنسوا أن تضعوا علامة على أسمائكم في الكشف

الذي بحوزة العم شوقي، أترككم في رعاية الله. السلام عليكم.
لا تندهش تلك أيضًا كلمات الدكتور حمدي! لا أعلم هل فعليًا أصبحنا لا نعي ما نقول، أصبحنا نخلع ونرتدي الأقنعة في نفس اللحظات، ألم يعد لدينا أي شعور بالذنب أو النفاق، كيف لنا أن نلعن الظلام ونحن نطفئ كل شمعة منيرة!
كيف لنا أن نعظ في المساجد، الكنائس والجامعات، وفي نفس اليوم نسرق ونقتل ونحجر على حرية الفكر، نعظ بالمحبة ونملك في أيادينا خلف ظهورنا سكاكين الغدر!! كيف نعظ بالأمانة وفي نفس اللحظات نفتح أدراجنا للرشوة، نعظ عن الاستقامة والشرف، ونستبيح أعراض الآخرين!! نعظ على الترابط والتوحد، ونحمل الضغينة بداخلنا بعضنا لبعض!! إنها حالة من النفاق الاجتماعي التي أصبحت حياة طبيعية!
نطلب من الله التوفيق في فعل الشر، وندعو لله بالانتقام!
رغم كل ذلك لم أفقد الأمل في أن أتمكن من معايشة الأفضل، رأيت الظلام يعم المكان، ولكن لم أفقد شعاع الضوء الذي بداخلي. سأتمكن من معايشة الأفضل، هذا ما كنت أردده دعما لنفسي، فالخير دائمًا ينتصر ولست وحدي فأمثال مؤمن وآدم يعني أن هناك الكثير منا!!

• • • • •

قفز شيطان بأسلوبه وسرعته واستعداده الدائم قائلًا:
- ولِمَ يجب علينا أن نعمل ما نحب أو نفعل دائمًا ما نريده؟ ليست تلك القضية أو النقطة المهمة يا مجهول.
أجبته متسائلًا بنصف ابتسامة:
- وماهو إذن يا حكيم زمانك المهم؟؟

- المهم أو الأفضل كما تطلق عليه هو كيف تصنع لنفسك مكانة، كيف يمكنك من فرض نفسك على الآخرين، لا تهم الوسيلة ولا يهم قدر راحتك، الأهم هو الوصول، الأهم هو النتيجة، فالأستاذ الجامعي حمدي قد علم من أين تؤكل الكتف، تمكن من فرض نفسه في الجامعة، تمكن من خلق الفرص لجمع المال كالمذكرات والدروس الخاصة، الامتحانات، وكيفية صناعة الشرف أمام الطلبة، كي يتمكن من السيطرة على أذهانهم، إنه الابتزاز العاطفي يا صديقي.

سألته مستفسرًا:

- وما هو الابتزاز العاطفي؟

أجابني دون انتظار:

- أن تلعب على مشاعر وعواطف غيرك، ماذا أراد حمدي؟ ما أراده هو أن يطبع مذكراته ويبيع أكبر عدد منها، كيف يحدث هذا؟ بطريقتين: الأولى وهي إجبار الطلبة على شرائها وهذه الطريقة قابلة للنجاح ولكن ليس بالطريقة المثالية، فتلك الطريقة ستسبب شرخًا بينه وبين الطلبة وباقي الزملاء ولكن، ماذا لو أحبه الطلبة ورأوا فيه المثل الأعلى والقيمة وقديس العصر؟! سيتمكن من فعل ما يريد. . . وهذا هو المطلوب، كن معارضًا لأجل الشباب وانطلق بالشعارات الجوفاء، فالشعارات ليس عليها ضرائب، كن في صف الطالب فيشعر بأنك تبحث عنه وما يهمه، عن حقه وأنك إلى جانبه، تلك هي العواطف الضعيفة سهل السيطرة عليها حينها، بع مذكّراتك واطلب ما تشاء، فالجميع يُحبك. . ليس المهم ما تفعل، المهم ماذا ستحصد يا مجهول.

نظرت إلى ملاك وسألته:

- أليس لديك ماتقول؟!

أجابني إجابة مختصرة دون الدخول للجدل المعتاد، ولا أدري لماذا، أجابني:

- إنها تجارب الحياة يا مجهول، لك أن تبحث، لك أن تختار وتحمل الباقي.

ثم صمت وأنا أيضًا. وفي وسط حالة الصمت التي سادت فجأة وبدون مقدمات:

- وماذا عن نيرمين؟ لا يمكن التغافل عنها يا مجهول.

ذكرها شيطان وكانت كفيلة بالألم.

أجبته:

- نيرميـــــن!

أجابني بالتأكيد:

- نعم لابد أنك تذكرها فلا يمكن نسيانها، إنها الحلم الذي حكمت الحياة عليك بعدم تحقيقه، إنها السعادة التي رفض الكون والحياة أن يمنحاها لك، إنها نيرميـــــن!

• • • • •

إنها نيرميـــــن!

تمر الأيام والأحداث التي تعتبر المكون الأساسي للمراحل التالية، أذكر تلك الفتاة التي أحببتها من أول نظرة وأول لقاء، إنه أول أيام الجامعة بكلية الهندسة وفي أول ((سكشن)) وقع نظري على إحدى الفتيات، فتاة عادية لا شيء يميزها عن بقية الفتيات، ولكـــن خفق قلبي بشدة لم أشعر بها من قبل، شعرت وكأنه ليس ملكي، بل ملكها وقد حن إليها في لحظة رؤياها.

الحب من أول نظرة، لست ممن يؤمنون بتلك النظرية، ولكن ما هذا الذي يركض بعقلي وقلبي ومشاعري، لم أمر طيلة حياتي بتلك الحالة الفريدة، حالة ليست كسابقيها، ليست كحالة حب الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية حتى، مرتبط أنا بها رغم أنني لم ألتقِ بها قبلًا.

احمر وجهي لا أعلم لماذا، ولكن شعرت بأنني أعرفها منذ زمن طويل، وجهها مألوف لي رغم أنني أول مرة ألتقيها، وجه بريء جميل، لست قادرًا على وصف شعوري فلست عاطفيا بالدرجة التي تسمح لي بقول الكلمات الرنانة والجميلة، ولكن أحببتها من أول نظرة دون لقاء أو كلمة أو سابق معرفة، لا زالت حتى اليوم في قلبي.

تأتيني في أحلامي، بل متعاقدة مع عقلي وتفكيري تعاقد دائم، لا تفارقني أو تترك صورتها عيني، أسمع دائمًا صوتها في آذاني، يومًا فيوم أزداد حبًا وشوقًا، أعشق تفاصيلها، ينطلق قلبي فرحًا عندما أراها، ما أروع تطاير شعرها مع الهواء! وما أصفى ابتسامتها! ففي ابتسامتها أمتلك السعادة بين يدي وتنتشر البسمة في عمق نفسي، العيون التي تمتلكها جمال ينسب

إليه الجمال، أعشق تلك اللحظة التي تتغير ملامح وجهها فرحا أو حزنا إلى ملامح الأطفال. . ما أجمل برائتها! ماذا حدث؟؟ لقد ارتبطت بها ارتباطًا لم أعد أستطيع التراجع عنه، لقد أسرت قلبي وعقلي وكل مشاعري، كل ذلك ولم أتمكن من التعامل معها بشكل مباشر، فكل ما كنت أفعله هو الجلوس بالقرب من مكانها، حاولت كثيرًا التواصل معها ولكن، لم أكن أتمكن من قول الكلمات وأنا واقف في حضرتها، أسرح ويتلعثم لساني، وتسقط مني الكلمات.

مرت السنون محاولًا تجميع قواي ودعم أصدقائي وخصوصًا آدم فهو من يحمل سري وهو من يعرف عقلي فهو نسختي التي أراها في المرآة، أخبرته وكالعادة وقف إلى جانبي حاول مساعدتي بنصائحه ومحاولته لجعلي أتقرب منها. . . ولكن في كل مرة أفشل فيها، قوة حبها أقوى مني، فإني ضعيف أمامها، مرت السنون حتى انتهت أيام الجامعة وأنا لم أستطع أن أبوح لها عن حبي، لم أستطع، ولم أكن قادرًا على الارتباط فليس لديّ سكن خاص أو مال للارتباط، فالارتباط يحتاج ثروة، شبكة ومهر وسكن وعفش وهدايا وقاعة أفراح وعزومات وتباهٍ بالملابس والذهب، ليس لديّ قدرة على كل ذلك، فأنا في مقتبل العمر. هكذا كان رأي أبي منذ زمن، فلازلت أطلب منه مصروفي. . وليس لدي القدرة حتى على مصارحتها، أشعر بالرغبة الحقيقية في أن أبوح لها عن حبي وفي نفس اللحظة أخاف من فقدانها، أو جرحها، فلا أستطيع التحمل.

• • • • •

كالعادة غلبتني الحياة وكسرتني الظروف وضاعت الحبيبة من يدي وقد ذهب كل شخص منا إلى طريقه، فارقت عيني ولكن حتى اليوم لم تفارق قلبي أو عقلي فمشاعري أسيرة لديها. تم اقتطاع جزء مني، ولم تعد الروح كما كانت.

هذا هو شعوري بالفعل، فقد كانت بالفعل تلك هي حب العمر وكل العمر، نيرمين، سيظل هذا الاسم علامة مميزة بقلبي وعقلي وجزءًا من روحي. . .

نظر إليّ ملاك بنظرة شفقة ودعم نفسي قائلًا:

- أشعر بك يا صديقي، أشعر بكم المرارة الذي بداخلك، فمن الصعب الافتراق عن الأحباب، فالحب هو نفخة الحياة وهو مصدرها، وأعلم كم تعاني وكم تتمنى لو أن يعود الزمن للوراء، لكان اختيارك حينها وقرارك مختلفان، ولكن تشدد وتشجع وثِقْ أن التجربة التي لا تقتل تصنع روحًا أقوى.

بادره شيطان سريعًا مقتربا مني:

- نعم، أنا معك يا ملاك، فالتجربة التي لا تقتل تصنع روحًا أقوى ولكن، السؤال الأهم هنا هو، لماذا؟ لماذا لا يمكننا الاحتفاظ بما نريد، لماذا لا نحصل على الانتصار!! ودائمًا ينتصر الشر على الخير!! وتنتصر المصلحة على الحب، لماذا لا يتدخل الله، ألا يمكنه أن يجمع القلوب المتحابة وأن يوحد الأرواح العاشقة، أليس الحب هو الحياة، فإن انكسر لم يعد للحياة قيمة، ماذا يريد لنا الله؟! أن نحب، نجتمع فنحيا أم نحب نفترق فنموت؟! سؤالي فقط هو لماذا لا ننجح ولماذا لا يستطيع أن ينتصر الحب؟!

صمتتُ أنا، فتلك الأسئلة فعليًا تملأ رأسي، ولا أجد لها أجوبة، والغريب أيضًا

أن ملاك صمت!! نعم صمت للحظات لم يتحدث فيها ولم ينظر إليّ أو إلى شيطان بل كان ينظر أرضًا إلى الأسفل ثم نظر إلينا وبدأ كلامه:

- أنا معكما، فمن منا لا يريد الحب، أو أن ينتصر دائما الحب، وأن يجتمع الأحبة، فما أروعها تلك الحياة التي تؤسس على الحب وتستمر به، مع العلم أن الخطأ والمشكلة كانت لديك أنت يا مجهول، أنت من تهاونت ولم تحارب من أجل حبك، لم تقدم الغالي والثمين لأجله، لم تتحمل لأجله، أنت لم ترغب حتى في التعبير عن مشاعرك، ربما خوفك من تكرار ما حدث مع مريم! أو. . . لا أعلم، فأنت أدرى شخص بمعرفة لماذا لم تبوح بمشاعر الحب التي بداخلك. . . ولكـــــــــن في حالة العموم ((الحب)) السؤال هنا هو من المسئول عن هذا؟!،من مسئول عن انتصار الحب؟ أنا، أنت، الله، الآخر، من؟! قد أحب أنا ولكن ليس أنت، قد تحب أنت ولكن ليس أنا، قد نتمنى نحن ولكن ليس الآخرون، يريد الله ولكن لا يتمنى الآخرون، من هو الذي يجب أن تُـنتزع حريته واختياره ويتم فرض اختيار الآخرين عليه؟! هذا هو السؤال، إذا تدخل الله، فأين الحرية وأين الاختيار؟! وإذا لم يتدخّل فلديك الحرية التي تترتب عليها نتائج ستتحمل أنت مسئوليتها! إنها حرية واختيار فردي ولكن في تلك الحياة يجب عليك أن تعلم جيدًا بأن فكرة الاختيار الفردي فكرة وهمية فلا يوجد اختيار فردي كامل بنسبة مئة بالمئة، فدائمًا يوجد بعض التأثير من الجماعة والبيئة، تختلف حسب تقبلك لهذا التأثير، فأي اختيار فردي متأثر بالاختيار الجماعي، ففي المجتمع أنت وأنا وهو والجميع يتأثر بالجميع، فاختيار الآخر يؤثر عليّ، واختياري يؤثر على الآخر، لا يمكن أن أتحدث عن اختيار فردي حر كامل، فلكل اختيار مني تأثير بالمجتمع، ولكل قرار بالمجتمع تأثير عليّ، لا يمكن إغفال هذا!

الله يحب ولكن لا يفرض ولا يتدخل في فرض اختيار على أحد، أنت تختار وأنا أختار وهو يختار، من يجتهد، ويسعى لتطبيق اختياره ورأيه، الأقوى، الأطول نفسًا، هو من سينتصر اختياره!! هذه الحقيقة، نحن نطالب دائمًا بما نرفض، فنريد من الله بأن يفرض آراءنا واختيارنا على الآخر ونرفض فرض رأي الآخر علينا حتى ولو كان الله، أليس كذلك؟

خيم الصمت على الجميع، ففي تلك الإجابة بعض مما داخلنا ولكننا لا نلتفت إليه، فنحن نطالب دائمًا بما في صالحنا ونرفضه حين يكون علينا، ببساطة نطالب في وقت ما، بما نرفضه في وقت آخر!

• • • • •

الوقت يمر ومازلنا نتجادل، أنا، شيطان وملاك، فكل منهما يبغي أن ينتصر وانتصاره يعني أن أسير خلف وجهة نظره. فشيطان دائم التذكير لي، وملاك دائم الدفاع.

أنا في مسافة متساوية منهم، فقد تساوت الكفتان، ولكن شيطان لا يمكن أن يتقبل الهزيمة أو مجرد التفكير بها، عاد بسرعة إلى ثقته وقوته وذكرني بذلك المشهد اللعين الذي أحاول جاهدًا مسحه من ذاكرتي ولكن لا جدوى.

ذكرني شيطان بذلك اليوم قائلًا:

- أعلم أنك لم ولن تنسى أحلام وطاهر فذلك يؤكد ما أخبرنا به ملاك بتأثير اختيار أي شخص على الآخر، فلا وجود فعلي للحرية الشخصية المستقلة، أتفق معه تمامًا، فأحلام وطاهر أكبر دليل، أليس كذلك يا مجهول؟ أخبرتك أكثر من مرة بل مئات المرات: اترك جملة القيم والأخلاق والإيمان جانبًا إن أردت أن تحيا وتجد نفسك، فأنت حر!

ألقى الجملة على آذاني وصمت، فهو يعلم ما ستصنعه بي، أجبته:

- أذكر يا شيطان. . . فلا يمكنني نسيان ما حدث في ذلك اليوم، لقد انهارت بالفعل أمامي الكثير من القيم.

أما أنت يا ملاك فهل تذكر، أتذكر، أتذكر كم اختليت بنفسي حينها وكم ذرفت من الدموع، أتذكر كيف أصاب الخوف قلبي وأصبح الشك هو يقيني الوحيد في الجميع. . أتذكر أم نسيت؟!!

أتاني الصوت الواثق من نفسه، إنه شيطان، قائلًا:

- لقد أخبرتك حينها، إنه الواقع يا مجهول، إنه الواقع والحياة، فلا معنى للقيم والمبادئ، تأثيرك ضعيف وسيظل هكذا، نقطة ماء في بحر عميق، إنها لن تعطيك الفرح أو المتعة أو الإحساس بذاتك إنها لا شيء، فتأثير المجتمع أقوى بما لا يدع وجها للمقارنة بين تأثيرك عليه وتأثيره عليك! ألم أخبرك مرارًا وتكرارًا وساعيدها أيضًا الآن على مسامعك: -أتقن رسم الفضيلة على وجهك، في العلن أمام الجميع، ثم اقتل طفلًا رضيعًا في بيتك كل ليلة-. إن الجميع يسير على هذا الدرب، تذكر: الجميع يرتدون الأقنعة، فلديك قناع الشرف والفضيلة أمام الجميع، في الظاهر، فالجميع متمكن في قول الكلمات والشعارات الرنانة، أما الداخل فمليء بكل ما هو رديء. ببساطة إن كان الظاهر جميلًا فهذا مطلوب كواجهة اجتماعية، أما الداخل فهو أنت! تذكر أن ما تراه لا يعني بالضرورة الحقيقة. . ارتدِ أقنعة المجتمع، أفسح طريقًا لتحقيق أمانك وذاتك وقوتك، وبينك وبين نفسك افعل ما تشاء.

- نعم نعم يا شيطان، أذكر ذلك اليوم وأنا جالس في غرفتي، أتابع إحدى حلقات مسلسل ((ذئاب الجبل))، كم كان هذا المسلسل رائعا بحق، وإذا بصوت عالٍ وصراخ، انتفضْتُ من مكاني، خارجًا إلى الخارج، إلى مصدر الصوت، ماذا هناك؟ ماذا يحدث؟ دقات قلبي تتسارع، الأصوات تتلاحم

معًا، صوت ما يشبه صوت استغاثة، شتائم، سباب، لعنات، رجاء، بكاء، لا أدري، غير قادر على التمييز، لا أحد بالمنزل، أين الجميع؟ ماذا حدث؟ ركضت بكل ما بي من قوة إلى الخارج، وإذا بي أجد عددا غفيرا من الناس، قد يكون جميع من بالحارة بالإضافة إلى أشخاص غرباء، حاولت أن أرى ماذا يحدث، فلست قادرا على الحركة من كثرة الزحام، ولكني أحاول الوقوف على أطراف أصابعي لأكتشف ماذا هناك، وما لاحظته هو وجود عربة شرطة وجارتنا أحلام وهي في حالة يرثى لها، شعر هائج، ملابسها متمزقة، وآثار صفعات على وجهها، وخلفها زوجها طاهر، وهو يصرخ بأعلى صوته بأقذر الشتائم والألفاظ ومجموعة من الشرطة تحاول المنع بينهم وإدخال كل منهم عربة للرحيل بهم، وحالة من اللا حول ولا قوة في لسان الجمع الواقف، فهناك العم سمير أراه يصفق بيد على يد قائلًا، رحماك يا الله، وهناك العمة أم أنعام وهي تقول: من المؤكد هناك خطأ ما، فلا يمكن أن يحدث هذا، ثم إن طاهر هذا رجل سيئ وكسول، فهو لا يعتمد عليه، بل كل يوم والثاني يضرب زوجته من أجل المال، فليعينك الله يا أحلام، وهذا في صف طاهر وذلك في صف أحلام، وحالة من الزن والكلام والتهامس في ذلك الموضوع. دخلت المنزل محاولًا الاستفسار من أبي لم يعطيني جوابًا بل استشاط غضبًا فيّ، سألت أمي، فقالت بلهجة دعاء: فليصلح الله الحال يا ولدي. لم أتمكن من الحصول على إجابات، ولكن إن كان الخبر في يومنا بثمن، فغدًا سيُذاع مجانًا.

• • • • •

كان طاهر وأحلام من الشباب، فطاهر يبلغ من العمر ٣٥ عام وأحلام ٢٠ عام، تزوجا كأي زواج تقليدي، حيث حضر الاثنان أحد الأفراح المشتركة بينهم، وكالعادة كانت أحلام كأي فتاة، كاملة الزينة، فالشعر ما أجمله، والأحمر والأصفر يزينان الوجه، روج وبودرة ورموش طويلة، والفستان أعلى من الركبة، وكل ما طاب ولذ فهذا يوم استثنائي للملابس والعرض، رآها طاهر وقد أثارت إعجابه فشكلها جميل، كما أنها صغيرة، تصلح زوجة فالفتاة جمالها صارخ، سنها مناسب، لمَ لا؟

انتهى العُرس، وبدأ مشوار طاهر في السؤال عنها والبحث عن أي معلومة تخصها، تمكن من الوصول لها عن طريق الأحباب والمعارف، أرسل لهم في طلب التعرف على الفتاة، وتم السماح له بذلك، تم تحديد يوم للمقابلة في منزل أحلام، وذهب طاهر، بالطبع مهتم بملابسه ومظهره، فقد كان في أحسن وأبهى صورة، وصل في الميعاد، استقبله أهل أحلام، جلس معهم وهو في حالة من الأدب والاحترام، سمح الأهل بأن يجلس هو وأحلام لمدة ساعة تقريبًا، لكي يتمكنوا من التعرف بعضهما على بعض، وكعادة هذه الجلسات، كل منهم أظهر أجمل وأنقى وأفضل ما فيه، ففي تلك الحالات كما تعلم ياصديقى العزيز، تظهر حالات التدين النقية الصافية، والكلمات الراقية وحسن الخُلق والآراء المنفتحة وحالة من الحرية في الحوار ووعود وعهود.

لو حدث ما يتم في تلك الجلسات لصارت الحياة أحلى ما يكون. . . نعود إلى حديثنا، انتهت الجلسة، وتقدم بعدها طاهر بشكل رسمي، وافقت أحلام على الرجل، فالخطبة جميلة، ففيها يسمح بالأحاديث والكلمات التي تطمئن القلب وتريح المشاعر والاهتمام بالجنس الآخر والسماح للمشاعر المكبوتة بالانطلاق تحت مظلة شرعية! ففيها يسمح بالخروج والدخول

والملبس والزينة. . . تمت الخطبة، وتبادلا الزيارات والحب والمودة بين الأسرتين، والاهتمام من هنا ومن هنا، وحالة من الفرح السمائي وصفاء الحياة، استمرت تلك الحالة قرابة سبعة أشهر كللت في نهايتها بالزواج المبارك وأقيمت الأفراح والليالي الملاح، وحضر المدعوين من هنا ومن هنا، وتم المراد.

مر الأسبوع الأول من الحياة بشكل جميل وحياة ولا أروع، حبًا ودلع وكسل، ثم حان وقت عودة طاهر إلى العمل، واختلاط أحلام بأهل المنزل ومن هنا بدأت الحياة العادية، يوم نزاع ويوم هادئ، أيام يهدأ فيها المنزل وتنشر فيه البهجة وأيام لا يهدأ الصوت والسباب، مرت الأيام حتى هذا اليوم الذي حدث فيه ما حدث، انتهى ذلك اليوم بأحداثه الغريبة المتعبة وأتى الغد بأخباره، فقد كنت منتظرا كالعادة على موقف انتظار السيارات، أنتظر السيارة التي تتأخر كعادة المواصلات لدينا، وكان بجواري محسن أحد المعارف وهو قريب لطاهر، دار بيننا حوارًا كالآتي:

- كيف حالك يا مجهول؟

- أنني بخير وفي أفضل حال، كيف حالك أنت يا محسن؟ أرجو أن تكون بخير.

- نشكر الله على كل شيء يا مجهول .

قالها بتنهيدة طويلة، أحسست بها، فأجبته:

- يستحق الشكر، ولكن ماذا بك، تلك التنهيدة تحمل حملًا ثقيل، شاركني فالحكي نصف الطريق للراحة يا صديق.

- ليس هناك شيء يا مجهول، أنا فقط أطلب منك أن تدعو لنا، وأن تسأل الله أن يرحمنا.

قالها وهو ينظر بعيدًا وكأنه يحمل حملًا ثقيلًا، شعرت أنا به.
- فليرحمكم الله وليعطيكم سؤال القلب، لقد أثرت انزعاجي، ماذا بك يا محسن، هل لهذا علاقة بما حدث أمس لطاهر.
وإذا بتبدل وجه محسن تبدل ملحوظ، فقد ظهر على وجهه علامات الغضب واحمر وجهه، فمن الواضح أن هذا الموضوع موضوعًا كبير وحساس، أكملت كلامي:
- أعتذر إن كان الموضوع شخصي، لا أريد أن أزعجك أو أن أتسبب في ألمك، كل ما أريده فقط أن أشاركك ضيقك وان أفكر معك بصوت عالٍ، ألسنا أصدقاء؟
- نعم، إننا كذلك يا مجهول، سأحكي لك، فالموضوع لم يعد مجهولًا وغير معلوم، فالكل يعلم الآن.
- أحك يا محسن، أنني أسمع.
- تعالى فنجلس في تلك القهوة ونتحدث.
تحركنا للجلوس على ((القهوة)) الموجودة امام مكان الانتظار وبدأ الحديث وأنا مُنصت إلى ما سيحكيه محسن فضولًا للمعرفة وبدأ محسن حديثه:
- قبل ذلك اليوم المشئوم الذي حدث وما رأيته ببضعة أسابيع، كان طاهر قد ابتاع هاتفًا حديثًا لزوجته أحلام، هاتف حديث، به إمكانيات مرتفعة، لم يكن ذلك بدافع الحب والتدليل لزوجته، بل بدافع الشك.
هززت رأسي غير مستوعب ما يقول:
- اعذرني، ماذا قلت؟؟!
أجابني واثقًا وبنبرة قوية مكملًا:
- بدافع الشك حيث إن طاهر كان في تلك الفترة قد لاحظ اختلاف طريقة

تعامل أحلام معه، فأخبر الأسرة فقرر الجميع معرفة السبب، فاقترحوا أن يبتاع طاهر هذا الهاتف، والذي به ميزة تسجيل المكالمات ويعطيه لأحلام لمعرفة ماذا تفعل ومع من تتحدث وبماذا تتكلم ولمن. . . وحدث حيث قام ظاهر في ذلك اليوم فجرًا من النوم وأمسك بالهاتف وخرج إلى صالة المنزل وقام بتشغيله وسماع ما به من مكالمات وإذا بالمفاجأة! وجد تسجيلات لأحلام مع أحد شباب المنطقة يعمل في التجارة، وبه مكالمات حب وعشق و. . . أشياء من هذا القبيل.

أصابتني صدمة، ماذا يقول هذا الشخص وكيف يمكنه التشهير بزوجة ابن عمه، وكيف هذا من الأساس. . هززت رأسي غير مستوعب لما يقول:

- ماذا حدث، هل هذا حقيقة، كيف تأكد وماذا فعل؟!

أكمل محسن:

- سأخبرك، فلتسمع للنهاية، فطاهر شخص طيب وقد أنقذه الله وكشف له هذا الشر. تمالك طاهر نفسه وحاول بقدر المستطاع ألا يفعل شيئا، ذهب إلى أهله وأبلغهم، فقرروا، أن يذهب إلى قسم الشرطة ويتقدم ببلاغ رسمي ضد هذه المرأة العاهرة، وألا يؤذيها. فهي لا تستحق أن يضيع حياته في امرأة مثل هذه. . . وبالفعل أبلغ طاهر الشرطة بما حدث وقدم الهاتف، وحدث ما رأيته في ذلك اليوم، إن طاهر شخص طيب ولسوء حظه أنه سقط في نصيبه فتاة كهذه يا مجهول، إنه يعيش حالة سيئة تلك الأيام.

- وماذا سيفعل إذن يا محسن؟؟

- الآن تواصل مع محامي ورفع قضية طلاق.

- وماذا حدث لأحلام؟

- أحلام، إنها ملعونة، سيئة السمعة تلك

قالها بغضب شديد.
- إنها في منزل والدها، فليلعنهم الله.
وانتهى الحوار بيننا بعدما أخرج كل ما في قلبه من كره وسباب لتلك الفتاة وأهلها.
ستسألني يا قارئي العزيز، ماذا حدث بعد ذلك؟
لم أهتم لمعرفة ما حدث ولكن تلك النظرة بأعين الجميع لأهل أحلام، والكلمات التي يتهامسون بها، وقصة من هنا وأخرى من هناك وهذا رأى ما حدث وذاك سمع من جاره، تلك كانت تشك في ذلك المنزل، وهذا كان يرفض التواصل والتعامل معهم، وهنا كما تعلم تظهر الأحاديث والحكايات والافتراضات و. . . إلخ وغالبا تسقط الحقيقة وسط كم الافتراضات!
سمعنا بعدها بفترة انتحار أحلام وزواج طاهر! وأما أهل أحلام ففي حالة من الانكسار وعدم الخروج من المنزل إلا في الحالات القصوى وكان الله في عونهم في تلك اللحظات التي يتحركون فيها، فنظرات الناس لا ترحم!!
لم يعرف أحد الحقيقة، وإن كانت أحلام قد خانت طاهر فعلًا، أم إنها قصة تمكن هو من ابتداعها وتحقيقها في أرض الواقع كي يتمكن من الزواج من فتاة أخرى كانت تعجبه وظلمت أحلام؟! لا أحد يعلم، ولكن ما أعلمه هو بفعل واحد تحطم عدد كبير، فأهل طاهر أيضًا لم يسلموا من القيل والقال، أحلام ماتت، أهلها انكسروا انكسارًا شديدًا، السؤال الذي يطرح نفسه هنا، ما هو الزواج؟ هل هو ضرورة كونية؟ لماذا نتزوج، وما هي أسسه؟
ما المشكلة إن لم نتزوج؟ هل الزواج هو الحب؟ أم هو الجنس؟ أم هو الشراكة؟ أم هو الامتداد في الأرض وخلق جيل آخر؟ أم كل هذا؟
هل نحب فنتزوج، أم نتزوج فنحب؟ هل نتزوج حتى وإن فشلت قصة

حبنا؟ هل نتزوج بمجرد رؤية الفتاة أو الرجل، فنتمم الأفراح، هل تكفي جلسة أو اثنتان، هل تكفي الزينة والجسد؟ هل نتزوج لئلا يتحاكوا عنا أننا لسنا رجالًا كاملين، أو أننا نساء أولات سمعة سيئة؟ هل الخوف من الأحاديث هو ما يدفعنا لذلك؟ هل الخوف من الوحدة يدفعنا لذلك؟ أسئلة كثيرة جدا لا تنتهي، هل نتزوج أيا كانت النتائج، كما حدث مع طاهر وأحلام، ألا يمكن أن يكون شعور أي شخص منهما بأنه أخطأ وأن الشخص الآخر غير مناسب وليس لديه القدرة على استكمال تلك الحياة، أم إن العلاقة متوترة فلم يتمكنوا من معايشة الحب وأن يتقبلوا بعضهم البعض، ألا يظهر في بعض الزيجات وعدم التوافق التسبب في إهمال تربية الأطفال، فكم لدينا من أطفال داخل بيوتنا لا يختلفوا عن أطفال الشوارع، فالإهمال ثم الإهمال ثم الإهمال، لا أعلم ولكن منذ تلك الحادثة وأنا في حالة من عدم الثقة، من الخوف والقلق من الجميع، لابد من حساب كل خطوة لتفادي النتائج غير المرضية، ولقد تسبب ذلك في تأجيل خطوة الارتباط أو التفكير فيها.

• • • • •

- إن الابتسامة تعلو وجهك يا شيطان؟!

قلتها، عندما رأيت شيطان يبتسم ابتسامة منتصر غنم ما اراد!

وبنفس الابتسامة والثقة والغرور أجابني:

- نعم يا مجهول ولما لا، أليس هذا ما أخبرتك، أخبرتك أن الجميع يبحث عن المتعة واللذة، فليس هناك شيء آخر، أخبرتك أن الحب كلمة سطحية لما هو أعمق، إنه الامتلاك والجنس، أخبرتك أن الجميع يبحث عن غايته أيا كانت الوسيلة، أخبرتك حينها: -افعل مثلما يفعل الجميع، دع الحياة تتحرك

كما تتحرك، سر في داخل تيارها، فالحياة ستحملك على أجنحتها وستصل بك لبر الأمان- أخبرتك حينها. وسأكرر عليك نفس الكلمات: -تذكّر إن ما تراه لا يعني بالضرورة الحقيقة. . ارتدِ أقنعة المجتمع، أفسح طريقًا لتحقيق أمانك وذاتك وقوتك، وبينك وبين نفسك افعل ما تشاء-.

صرخ ملاك:

- اصمت يا شيطان، مجهول لا تسمع له، كنت حينها بجوارك يا صديقي، وأخبرتك أن كل شخص يتحمل نتائج اختياره، أخبرتك أن لكل شخص توجُّهه، لسنا تَوَجُّها واحدًا، لقد منحنا الله الحرية تلك التي لا تجدها في أي مخلوق آخر، ولكل شخص حق الاختيار وتحمل ما يأتيه ذلك الاختيار بنتائج، إنها الحرية التي تتبعها المسئولية، أخبرتك حينها، ولا يمكن أن تعمم ما حدث، فالحب حب والزواج زواج، تفاعلنا مع المواقف وتعايشنا للحب والزواج، لا يعني بالضرورة إن هذا هو الحب وذلك هو الزواج، تذكر أن الصورة ليست هي الأصل، تذكر أن الخريطة لم تكن ولن تكون في يوم هي الأرض، تذكر أن هذه نظرتنا وتصورنا عنها. فمن يحكم، يتحدث وهو لا يملك المعلومة، هذا خطؤه واختياره، لماذا لم تفكر في البداية، لما اخترت أن تتحدث عن النهاية؟!

- كيف؟!

- أليس من الخطأ أن تتزوج دون تأنٍ في الاختيار؟ أليس من الخطأ أن تتزوج وأنت لا تدري مشاعرك أو مشاعر الطرف الآخر؟! أليس من الخطأ أن تتزوج وأحد الأطراف لم يكن ناضجًا بما يكفي لتلك المرحلة؟! أنرتكب الأخطاء ثم نعود لإلقاء اللوم على الله وعلى الأخرين؟!

صمتُ أنا كعادتي حين أشعر بأنني في متاهة.

• • • • •

صمت أنا كعادتي حين أشعر بأنني في متاهة. .

أما عن الحوار بين ملاك وشيطان فتصاعدت حدته فكل منهم يريد أن يتمكن من إقناعي بوجهة نظره، فلكل منهم رأي كما رأيتم سابقًا، فهم دائما الحوار بل الجدال بل التنافس وأنا غنيمة الحرب، نعم فهي حرب لكل منهم، فالكل يبحث ويرجو النصر، يجتهد ويبذل أقصى ما لديه، فالنصر للقادر وللقوي، للمتمكن، لمن يمكنه إقناعي، فمن ينتصر يمتلك فكري كاملًا، يمتلك كل شيء! فأنا غنيمة كما ذكرت لك!!

بدأ حوار قوي، أثار داخلي تساؤلات قوية ومنذ تلك اللحظة بدأت في التحرر منهم، بدأت في الاكتشاف!!

بدأ شيطان كلامه:

- الحياة لا قيمة لها يا مجهول، لا معنى ولا هدف، إنها لا شيء، إنها عبث، وجدت أنت من أجل اللاشيء ومصيرك هو اللاشيء، وجدت دون إرادة منك وسترحل دون إرادة منك. ولدت أنت لكي تموت. اختبئ يمينًا أو يسارًا، أسفل أو أعلى، اطمح، جاهد وابذل أقصى ما لديك، اسأل، ناقش، اختلف، اقنع نفسك أو غيرك، هدد، حارب، ابكِ، افرح، النهاية كالبداية، خرجت من رحم مُظلم وستدخل قبرًا مُظلمًا فلا معنى سوى الظلام واللاشيء.

قالها بثقة كاملة وصمت!

حالة من اللا فهم أصابتني فالكلمات تسقط حملًا ثقيلًا على قلبي، ضوضاء مؤلمة تثقب أذني، عقلي في حالة من اللا استيعاب، ماذا يعني وماذا يقصد

ما هذا الكلام، النهاية أنه لاشيء!
بدأ ملاك كلماته ليخرجني من تلك الحالة وجاء رده طويلًا متناقضًا، صعب الفهم أيضًا، إنني الآن بين المطرقة والسندان، هذا الرأي وذلك يسلب مني روحي ببطء، بدأ العراك والجدال المر.
- لا يا شيطان إن الحياة أجمل الهبات، أنت فقط تريد النظر إلى النصف الفارغ من الكوب. مجهول ياصديقي إن أردت أن تنظر فعليك بالنصف المملوء، ولتعلم كما أن الحياة مليئة بالأحداث المؤلمة فهنالك الكثير من الأحداث الجيدة والرائعة التي لا تُمحى من الذاكرة، فهي نفحة الأمل ووقود الحياة.
- لا تكذب عليه يا ملاك
قالها شيطان بنبرة من السخرية والابتسامة الخادعة.
- فأنت وأنا ومجهول كلنا يعلم أن الحياة حالة من الظلام الذي وجدنا فيه وأن البقاء للأقوى ومن انعدم ومات ضميره، إن أردت أن تحيا فعليك بكل ما هو قبيح، تلون، اكذب، اقتل جسدًا أو نفسًا، تسلق فوق أكتاف الآخرين، لا تحب فالحب كلمة ضعيفة وهشة وأولى خطوات الكسر، نافق، جامل، كن مرنًا، تنازل، هذه هي الحياة، هذا ما مررت به هذا ما عايشته أنت يا مجهول، هل تذكر تلك الأيام كم كانت مُـرة، أيام خدمتك بالقوات المسلحة؟ أم نسيت يا مجهول؟!
نجح شيطان في اختيار الكلمات والضغط عليّ وتدعيم جبهته، فما قاله هي الحقيقة المؤلمة، فهي تلك الحياة وهذا ما رأيته، ما عايشته.
- أذكر يا شيطان، فتلك أيام لا تُمحى من ذاكرتي ما حييت.
وهنا زاد ضغط شيطان، فقد وجد فرصته لإقناعي وببساطة وسهولة وبدليل

واضح. وخصوصًا أن ملاك صمت ولم يعد لديه ما يقوله:
- هل تذكر مـُرها ومعاناتها. . كنت عبدًا مكبلًا بجميع القيود، ألم يكن يـُحسب لك ما تأكل وما تشرب، متى وكيف وأين تنام، متى وكيف تستيقظ، ألم تكن رقمًا في داخل الأرقام، ألم تكن ((أفارول مموه وبيادة وخوذة))؟ ألم تعامل كحيوان؟
ارتفع صوت شيطان وازداد حماسه، اقترب مني ونظر إلى عيني مباشرةً وأكمل:
- ألم تتم إهانتك من الجميع، ألم يتم سبك وسب أهلك بأبشع الكلمات وأقذرها، ألم تُهان أمام الجميع. . . حدث أم لا؟!
انزعجت أنا، فحولت نظري عنه، فأمسك ذراعي واقترب أكثر مكملا:
- أجبني ولا تشح بنظرك عني، انظر إلى عيني وأجبني، حدث أم لم يحدث!! إنها حياة لا تستحق.
انتفض ملاك وكأنه يجتهد ليعود مرة أخرى للحرب، فبالطبع لا يريد الخسارة:
- لا فلتنتظر يا شيطان، ليست بتلك البساطة، انتظر وناقش، تلك المرحلة ليست بتلك الصورة البشعة يا مجهول، فعليك أيضا أن تتذكر تلك المرحلة بما فيها من جمال وقيم وروح، لقد أظهرت بداخلك قدرات إنسانية عظيمة، ألم تعلمك كيف تكون مرنا وكيف تفكر وكيف تذلل العقبات؟ ألم تعلمك التضحية؟ ألم تكن تعاني كي تمنح الآخرين الأمان؟ ألم تعلمك أن تحمي ظهر غيرك وأن يحمي غيرك ظهرك؟ لقد أيقظت بداخلك الكثير من القيم، لا يمكنك نكران ذلك. . . أنا مع شيطان فيما قال ولكنها جزء من الصورة وليست كاملها، كما وجدت الخائن كما يقول شيطان، وجدت أيضا

من يستحق صداقتك، ألم تجد من كان أمينًا للمنتهى؟ ومن كان يضحي من أجل الآخرين؟ ألم تخرج منه بكثير من القيم الإيجابية؟ وكما وجدت المتطرف وجدت أيضًا السوي الخلوق المُحب، لا يمكن النظر لنصف الصورة والحكم بها على كاملها، إن نظرت فافتح زاوية رؤيتك وانظر بشكل أكبر وأعمق، ثم احكم حينها.

هنا تصاعد الجدال وقد وصل لذروته، وازداد العنف في الكلام، حالة من السؤال والجواب، التبرير والنفي، فكلمة من شيطان وأخرى من ملاك، بدأها شيطان وشاطره فيها ملاك:

- لا يا ملاك، بل التنازل والزيف فتلك هي صورة المجتمع.

- تلك رؤيتك أنت يا شيطان، إنها تحوي ما قلت ولكنها تحوي أيضًا الحكمة والفكر.

- بل الخداع.

- والمسئولية أيضًا.

- العبودية.

- الحرية أيضًا.

- الأقنعة.

- الشرف أيضًا.

شعرت بأنني لم أعد أحتمل ذلك الجدال المميت المهين، تلك الحرب التي تستهدف في النهاية إذلالي لأحدهم، شعرتُ وكأنني في مركز ضوضاء شنيع لم أعد أتحمله، وكأنني في حالة إعياء شديدة، تذكرت حينها سيزيف وصخرته، كُـتب عليه دائمًا وللأبد أن يظل في دحرجة صخرته لأعلى الجبل وهو يعلم تمام العلم، بأنها ستسقط ليعود هو فيدحرجها لقمة الجبل وهلم

جرا، المعاناة، لم أعد أستطيع الصمت وسماعهم، صرخت بأقصى ما لدي من قوة:

: كفـــــــــــــى كفى يا شيطان، كفى يا ملاك، كفى جدالكم البيزنطي، فأنت تتكلم وأنت تتكلم وأنا أختنق، فجدالكم الدائم حالة من النخر داخل عظامي، فكلامكم وجدالكم لا ينتهي، حالة من الحرب أنا ضحيتها، فكل منكم يلعب على وتر حساس داخلي، وكل منكم يهتم فقط بإثبات وجهة نظره، فلكل معنى عندكم معنى آخر، ولكل كلمة قصد، تعظمون في هذه وتهينون تلك، تحرمون هذه وتحللون تلك، تثبتون هذه وتنفون تلك، ترغبون في هذه وتبعدون تلك، تتذكرون هذه وتتتناسون تلك، تتعاطفون لهذه وتقسون على تلك. . . أنتم حالة من الألم. . ولتعلموا لم ولن أنسى أي مرحلة في حياتي كانت، سواء بما توقظه داخلي من ألم وألم أو بما تشيعه في نفسي بالفرح والبهجة والحب. . أذكرها مرحلة التجنيد، أذكرها. .

• • • • •

مرحلة التجنيد والقوات المسلحة، أذكرها

انتهت دراستي وشرعتُ أنا وآدم في تجهيز الأوراق الخاصة للالتحاق بالقوات المسلحة لتأدية الخدمة العسكرية، وكانت أولى تلك الخطوات ((الفيش والتشبيه)).

- كانت مرحلة مهينة، أليس كذلك يا مجهول؟

- نعم، أعلم جيدًا كم كانت مهينة يا شيطان ولكنها كانت مرحلة فكاهية أيضًا، لا تستطيع أن تتغافلها، أليس كذلك؟

وهنا ولأول مرة يضحك شيطان وملاك وأنا في ذلك الموقف العصيب الغريب بداتُ في أوراق ((الفيش والتشبه)).

أنهيت دراستي الجامعية، وبدأنا أنا وآدم في إعداد الأوراق اللازمة للالتحاق بالقوات المسلحة وتأدية الخدمة العسكرية كي نتمكن بعدها من مباشرة حياتنا الطبيعية والمهنية، بدأنا في عمل الأوراق، أذكر ذلك الموظف في قسم الشرطة، ذهبنا لعمل الفيش والتشبيه وجدنا طابورا طويلا طويلا، أخذنا أدوارنا بالصف أنا وآدم وكنا آخر الصف! ومرت ساعة، بل اثنتان، بل أكثر ثلاثة! اكتشفنا في النهاية أن الطابور لا يتحرك إلا ببطء شديد جدًا وفوجئنا أن هذا الموظف الذي يقوم بعمل الفيش يتقبل ((شاي)) لكي يختصر لك الوقت ويمررك بأسرع ما يمكن لكي لا تنتظر في طابور طويل لا ينتهي، تحرك آدم إليه وصنع مشكلة انتهت تلك المشكلة بحالة من الضرب، أتذكر في هذا

اليوم كم الركلات التي أخذناها أنا وآدم، فليسامحك الله يا آدم، كل من مر من أمام قسم الشرطة شارك في ضربنا، من يجامل ومن يشارك ومن يثور و. . . إلخ.

-نعم وهل تذكر في ذلك الموقف كم اللا إنسانية التي أهانتكم، أهكذا يُعامل إنسان!

ألقى بها شيطان وسط ضحكاتي أنا وملاك، يعلم جيدًا متى يتكلم ومتى يصمت وماذا يقول، دائمًا متمكن.

- أذكر ولا أنكر، كانت حالة من اللا احترام واللا إنسانية، هكذا يُعامل السيد العبد دائما.

- ولكن ألا تذكر أيضًا كم ضحكت أنت وآدم حينها، ألم يخرج آدم ولم يجد حزام بنطاله.

كانت تلك الجملة من جانب ملاك، هدأ بها الموقف وأعاد الابتسامة مرة أخرى، ضحك ملاك وأنا وأيضًا شيطان.

- نعم أذكر وقد كان بنطاله متسع بعض الشيء، ظل ممسكه بيده حتى وصل بيته.

صارت حالة من الضحك، لم يتمكن أحد منا منع نفسه من الضحك، إنها لحظات جميلة حين نتخلى عن كل شيء ونضحك.

- ما أجمل الضحك حين يخرج من القلب أليس كذلك؟

كلمات ألقاها ملاك ونحن نضحك.

أجبته:

- نعم، نعم. ما أجمله.

واستنشقت نفسًا عميقًا.

انتهينا من كامل الأوراق، تم ترحيلي أنا لأحد أسلحة القوات المسلحة وكان سلاح دفاع جوي بأحد كتائب المراقبة بالنظر وتم توزيعي لأحد السرايا ثم أصغر وحدات القوات المسلحة وهي ((نقطة)) تقع على شاطئ البحر الأحمر بإحدى القرى السياحية، أما عن صديقي آدم فقد تم إعفاؤه ((ما أجمله حظ أن تجتاز مرحلة تمتد لسنوات في دقائق معدودة، تصبح فيها حرًا من اجتيازها)) ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن دائمًا، فلا يوجد شيء بدون مقابل! وكانت صدمة سبب الإعفاء قاتلة! فآدم مُصاب بمرض السرطان!! عم الحزن على الجميع، ما هذه المعاناة وتلك الحياة اللعينة التي لا ترحم ولا تترك للرحمة مجال، لم يهنأ آدم بالإعفاء فقد أصيب بحالة اكتئاب شديدة وكأن الحياة انتهت في تلك اللحظة!! أما أنا فأصابني العجز، أريد أن أكون بجواره حاولت بقدر الإمكان كلما سمحت لي الظروف بالتواصل مع آدم هاتفيًا أو أن أذهب إلى بيته للتواصل معه مشجعًا إياه، أي تشجيع مفيد في تلك المواقف!! لا أدري! ولا يمكنني وصف إحساس آدم، فمهما شعرت به أو كنت قريبًا منه فلا يمكنني ان أشعر بما يشعر، فكما يقال اليد التي بالماء ليست كاليد التي بالنار!

• • • • •

فكما يُقال اليد التي بالماء ليست كاليد التي بالنار!

مر وقت طويل في الإجراءات حيث إنني رُشحت للدخول كظابط احتياط وبدأت في الإجراءات المطلوبة فأمامي الوقت الذي يمتد لأكثر من ستة أشهر للترحيل والالتحاق بالقوات المسلحة. في خلال تلك الفترة كنت أذهب لعمل الإجراءات سواء بالتجنيد بمدينتي أو السفر للإجراءات المطلوبة في التجنيد بالقاهرة والعودة إلى أسيوط.

في تلك الفترة كنت أحب الجلوس على كورنيش النيل بشارع المحافظة بجوار داون تاون ((كافيه راقي)) أتامل في نهر النيل، عادتي، كي أتمكن من الفضفضة مع نفسي ولكي أرمي همومي بالمياه فهي كاتم أسراري وحضن هدوئي. ذلك النهر الذي بدأ مع بداية الإنسان بل ربما كان قبله أيضًا، مرت آلاف السنين أو ملايين لا أدري، خلالها ولد ومات ملايين البشر ممن يؤمنون بالخلود، ومازل هو يحيا حتى اليوم!! جار عليه البشر بالمباني الشاهقة على جانبيه والمشاريع العملاقة وردم ما أمكنهم ردمه ولكنه مازال موجودا حتى الآن!! من الخالد إذن، من يبحث عن الخلود فيموت، أم من يصمت ويظل خالد؟! كنت أتناول الوجبة المحببة لدي، حلبِسَّة، بعض من الحمص والشطة والليمون والكمون مخلوطة معًا، حينها وأنا أتامل، إنها من أكلاتي المفضلة وإذا بي أجد يد طفل صغير عمره لا يتخطى الثانية عشر من السنين. . . يحادثني:

- إذ سمحت أيها العم، إن أمكن وإن لم تستطع فأعتذر؟!

اعتدلت في جلستي ناظرًا إليه:
- قُل، ماذا تريد يا أيها الفتى العزيز.
قلتها مبتسمًا.
- لي كثير من الوقت أتمنى تناول تلك ((الحلبسة)) ولكن المال في تلك الأيام غير مجدٍ معي، هل يمكن أن تأتيني بواحدة فقط؟!
كان الاحمرار ينتشر على وجهه والكلمات تخرج بخجل واحترام.
أخبرته:
- ولما لا، أقلها تشاركني بدل من أن أجلس وحيدًا، وكما ترى الجميع يجد ونيسًا إلا أنا.
وابتسمت ابتسامة خفيفة:
- سأعتبرك صديقتي.
ضحكتُ أنا وهو، وكانت ضحكته جميلة، شعرت أنها من قلبه.
أحضرت له واحدة، أكلها وكنا نتحادث أثناء الأكل وبعد الانتهاء، حاولت أن أعطيه بعض المال ولكنه رفض رفضًا قاطعًا، انتهى الحوار والجلسة. .
اعتدل ورفع يده شاكرني:
- شكرًا أيها العم، شكرا.
ثم ذهب إلى عمله.
عُدتُ أنا إلى المنزل ومرت الأيام، محاولًا تشجيع آدم ومساندته بقدر ما يمكنني، أتذكر في إحدى المرات اختلفت مع الوالد. فلدي مصاريف أحتاجها. أحتاج الخروج والدخول وشراء الملابس. أحتاج إلى الرحلات و. . إلخ. مما تسبب في أثقال على والدي ماديًا وقد كانت أوضاعه في تلك الأيام غير مرضية كما أوضاعي أيضًا! لا تعليق. فليست لدي القدرة على الالتزام

بأي عمل إلا بعد تأدية الخدمة العسكرية، تلك الخدمة الوطنية التي لا يتخطى راتبها مائتين وخمسين جنيهًا، فهي خدمة وطنية! مما تسبب في حالة من الخلاف ببني وبين والدي. خرجت على أثرها من المنزل هائمًا على وجهي في شوارع المدينة مستقرًا بي الحال على كورنيش النيل فهذا هو مكاني المفضل. تفحصت في وجوه الجالسين تملأهم الابتسامة والفرح. فلديك هناك أسرة كاملة الأب والأم جالسين مبتسمين وأطفالهم يلعبون وهناك عاشقان يستمتعان بحياتهم معًا وعلى بُعد خطوات مني مجموعة أصدقاء يتحاكون بصوت عالٍ مبتسمين. فلما أنا الذي أغتم؟! لم يعاملني أبي هكذا؟ صرتُ أتمتم بالكلمات الغاضبة بيني وبين نفسي حتي وقعت عيني على ذلك الطفل، طفل الشارع، البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة. كان يحمل بيده قطعة من القماش ويمسح بها إحدى السيارات الواقفة. شد انتباهي، أصلحت وقفتي لأتمكن من ملاحظته. كان يفعل ما يفعله بحب. كان يعمل بقلب. ليست مجرد تصدق بل عمل بمعنى الكلمة، كان يجلس يوميًا في الشمس أمام تلك الكافيهات والفنادق الموجودة على ضفاف النيل يكسب رزقه عن طريق تنظيف السيارات الواقفة أمام تلك الفنادق ويحصل على ما يكون من نصيبه. . . وما لفت انتباهي أنه يعمل بجد وبأمانة غريبة، يُنظف العربة لكي يجعلها بالفعل نظيفة، ليست عملية تصدق، وأنا أعي ما أقول، يعمل ويجتهد، يُنظف الأبواب مرة وأثنين، ثم ظهر العربة من أعلى نازلًا لعجل السيارة، ثم يعود لمسحها بفوطة أخرى! ظللتُ أتابعه حتى رأيت وجهه، إنه نفس الولد الذي أكل معي الحلبسة منذ فترة، ذهبتُ إليه وتحادثت معه، مما تسبب في راحة نفسية لي ثم ذهبتُ وتركته. . . واستمر هذا الوضع كلما سنحت لى الفرصة أذهب إليه نجلس أنا وهو نتسامر ونتحاكى حتى أصبحنا أصدقاء وأحببته جدا، قص لي

حكايته، وأنا مُنصت إليه وبدأ كلامه قائلًا:
- ولدتُ وعندما تمكنت من الحركة على قدمي، لم أعُد أرى والدي فقد توفي، وتكفلت بي أمي التي كانت تتسول في الشوارع، لم تكن تتقبل أن تعمل لكنها كانت تستهوي ذلك العمل فهو مريح ماديًا، حيث يمكنها التحصل على مبلغ جيد، لا يمكنها الحصول عليه من أي وظيفة ستعمل بها، مرت الأيام وكنت في كل يوم أعي وأتحسس الحياة، وبدأتُ العمل مع والدتي، حتى قابلت ذلك الشاب الجميل ويُدعى مفيد، اهتم بي لم أكن أعلم حينها لما!

• • • • •

هل تعلم أنت يا قارئي العزيز لماذا؟ أنا الآن علمت، أن تفعل الخير وأن تقدم يد المعونة، أن تهتم فذلك جزء من صميم الحياة، ليست فقط العمل وصنع ثروة والارتباط والإنجاب، ليست مجرد تصدق أو زكاة أو عشور، ولكن أن تعطي لروح أخرى معنى للحياة فهذا من صميم الإنسانية، تعطي حياة دون مقابل أو بحث عن مجد ذاتي أو حتى إرضاءً للآلهة!
أكمل طفل الشارع صديقي حديثه:
- اهتم بي وكان يأتي إليّ كل يوم من بعد الساعة الخامسة كما اتفق مع والدتي لكي يهتم بتعليمي القراءة والكتابة بدون أي مقابل، رفضت والدتي في البداية ولكنه كان مُلحًا حتى وافقت ولكن بعد الخامسة مساء، لكي أتمكن من العمل في التسول نهارًا، والتعلم ليلًا، ظللنا لـثلاثة أعوام هكذا، اهتم مُفيد بي اهتمامًا كبيرًا ليست فقط في تعليمي القراءة والكتابة بل أيضا التفكير والبحث والتساؤل ومعنى الحياة ولماذا أنا موجود وكيف يمكنني صناعة نفسي وشخصي، كيف يمكنني التغلب على المصاعب، كيف أتمكن من

مواجهة الفشل وعدم الاعتماد على الظروف، بل صناعة الظروف الخاصة بنجاحي، كيف ألا أشكو بل أستثمر طاقة الشكوى في الإنتاج الشخصي، نظف عقلي وزرع به بذور البحث والاهتمام، التطور والثقة في النفس، الطموح، الأمانة، القراءة، تكوين الرأي الشخصي، المحاولة والتكرار وعدم الاستسلام. . إلخ، حتى اختفى! لا أعلم ماذا حدث له أو أين ذهب! حاولت البحث عنه ولكن لا جدوى. . . اختفى ولم أُعد أعلم عنه شيئا. ولكن قبل اختفائه ترك لي خطابا، هذا الخطاب دائمًا معي لا أتركه وكأنه الدعم النفسي لي كأنه صديقي، وبالفعل هو صديقي لأنه من صديقي، كان هذا الخطاب يحتوي على كلمات تشجيع ودعم قوي، كلمات المحبة والود، صار هذا الخطاب صديقي وأعود لقرائته كل حين لأستمد منه طاقة إيجابية ودعم لتكملة المسير والطريق. وفي خلال تلك الفترة توفيت والدتي، صرتُ وحيدا، لم يعُد لي أحد، قررت الاعتماد على شخصي وبدأت ثمار ما زرعه في مُفيد، تركت التسول واتجهت للبحث عن عمل، لم أجد!! نعم لم أتمكن من الحصول على عمل، فشكلي وهيئتي لا توحي بأني شخص يُحترم أو يتم الوثوق فيه. تلك هي عادة ونظرة مجتمعنا. . فقررت أن أنظف السيارات ليست كصدقة ولكن كعمل حقيقي أمارسه بكل صدق وأمانة ولا أقبل أي صدقة أيا كانت. . . وفي نهاية اليوم أعود إلى مبيتي وهو عبارة عن غرفة صغيرة مغطاة ببعض ((البوص)) تحتوي بداخلها سرير وبعض الكتب التي حصلت عليها من مفيد وما ابتعته أنا، فقد وضعت لنفسي نظامًا بالقراءة لمدة ساعة يوميًا قبل النوم ومن هنا كونت ثقافتي ومعلوماتي وأفكاري، لم أستسلم ولم أترك نفسي للوضع الذي وُجِدتُ فيه ولكني قاومت واجتهدت، حاولت وفشلت فحاولت ففشلت فعُدتُ محاولًا مرات أخرى، حتى تمكنت

من الوقوف على قدمي، على الأقل أعول نفسي.

• • • • •

توالت المقابلات بيننا، بيني وبين طفل الشارع، محدثي عن الفقر وعن المرض، عن الجهل، عن الدين، عن المجتمع. . . . كنت أجلس مستمعًا إليه بكل اهتمام وإنصات، تعلمتُ منه الكثير والكثير، فتح ذهني للتساؤل وللبحث، كان نوره مرشدا جديدا لي في الحياة، إن الحياة ليست فقط خليطًا من الفرح والحزن وبعض الأحداث. إنها أبعد من هذا بكثير.

• • • • •

إن الحياة ليست فقط خليطًا من الفرح والحزن وبعض الأحداث.

إنها أبعد من هذا بكثير.
كان آدم في أسوء فترات حياته. . . إنها بالفعل أسوء أيام، فما هو شعورك عندما تعلم بميعاد موتك وأن الحياة لم تعُد أمامك، بل صارت خلفك! كنا نتحادث كثيرًا أنا وآدم، فكما كان داعما لي صرت أنا أيضًا له، الصداقة على حق بيننا. . . أذكر من ضمن ما دار بيني وبين آدم حوارًا ثقيلًا:
- الألم يا مجهول. .
- أعلم يا صديقي أعلم كم الألم، عليك أن تتحمل وأن تواجهه.
كنت أحادثه وأخبره بضرورة المقاومة وأنا شخصيًّا أعلم إنها مجرد كلمات.
- إن كان على الألم الجسدي. . فيمكن تخطيه. .
قالها بحسرة وألم وهم ثقيل، رأيت ذلك في عينيه، حاولت مجاراته في الحديث تخفيفًا عنه وأجبته:
- ماذا إذن؟!
- الألم النفسي يا مجهول. . لقد تركني الجميع. فقط ما أراه في أعينهم هو شفقة وتأدية للواجب المتعارف عليه في الزيارات للسؤال وإحضار بعض المشروبات لا أعلم لماذا!
وضحك ضحكة بسيطة مهدودة من المرض.
- عادات يا صديقي عادات.

وشاركته الضحكات، فما أحوجنا إليها.
- أتعلم يا مجهول؟ أشعر بالضعف والعجز وأنا تحت رحمة هذا المرض، أحوجني إلى هذا وإلى ذاك، قصم ظهري، أذلني بمعنى الكلمة.
صامت أنا، فقط أسمع، ليس لدي ما أقول. . فمهما شعرت به لن أصل إلى كمية معاناته، ولكنني كنت أنصت إليه.
- أذلني يا مجهول هذا المرض، شعور مؤلم ومؤلم إلى أبعد الحدود، أن ترى نفسك وأنت تسير خطوات العبد المكبل من كل جزء بجسده مجرور إلى الموت، وليس بيديه حيلة، فقط الموت ثم الموت ثم الموت، تحاول وتحاول الفرار، تصرخ إلى هذا وإلى ذلك، إلى الأب، إلى الأم، إلى الصديق، لا أحد يستطيع، فقط ما يفعلوه هو أن يدعوا إلى الله، حتى الله لم يعُد يسمع، تركني وحيدًا في مواجهة هذا الوحش ذاك الموت. . . أنا خائر، لا أستطيع الوقوف أو التفكير، لم يعُد لدي شيء أتمسك به بعد. . . إنها النهاية المحتومة المنتظرة اليوم أو الغد أو بعد الغد. . . ستأتي ولن يردها أحد.
حين ينهزم النفس الداخل أو الخارج ولا يستطيع إنعاشي، حينما يخور قلبي وعقلي في المواجهة ويسقط كل منهم تلو الآخر، حينما تفقد اليد السيطرة على سيف الدفاع، وتخور قدمي فلا تستطيع حملي فأسقط. إنها لحظات الأنفاس الأخيرة. وماذا بعد.
صمت آدم وبكيتُ أنا.

• • • • •

مرت الأيام وأنا في تواصل مع آدم حتى أتى اليوم الذي قصصت فيه لآدم عن صديقي طفل الشارع وكيف أنه لم يستسلم لوضعه وحالته، كيف أنه لم يستمر فيما تركته له والدته، كيف أنه قاوم واجتهد، قد لا يعني هو لأحد

شيئًا ولكنه أثبت لنفسه أنه قادر على التغيير وكسر الظروف، كيف آمن بنفسه وآمن بنجاحه، لم يستسلم لنظرة المجتمع ولكن صنع نظرته بنفسه.
. . تشجع آدم حينها وبدأ بالاهتمام بالكشف ومتابعة الجدول العلاجي حتى تمكّن من الشفاء، لقد كان آدم وفير الحظ هذه المرة، تم شفاؤه من هذا المرض سريعًا وقد كان هذا من حُسن حظه، فكثيرون لا يتمكنون من الصمود أمامه، ويرحلون في استسلام تام.
عاد آدم إلى حياته سريعًا، كان يريد أن يلتحق بعمل سريعًا كي يتمكن من الارتباط بحب العمر حنان.

• • • • •

لكي يتمكن من الارتباط بحب العمر حنان.

بدأتْ رحلة آدم في البحث عن العمل، في البداية لم يوفق، هكذا الحياة حزن ففرح فأزمة فانفراجة، مجموعة أحداث ومشاعر مختلطة لابد لك أن تقاسيها، فأغلب الشركات أو أعمال المقاولات الحرة تطلب مهندسين خبرة عدد من السنوات، وإن تم الموافقة على حديث التخرج فإن المرتب لا يكفي حينها الانتقالات أو غذاء الموقع أو المعيشة! ظل فترة طويلة يبحث ويبحث ويبحث، يخرج من تلك الشركة ذاهبًا إلى ذلك المكتب ومن ذلك المكتب لهذا المقاول ومن هذا لذاك وهكذا استمر الحال لفترة والجميع يسأل كم عدد سنين خبرتك؟! كم تتوقع أن تتقاضى مرتبك؟! اترك لنا سيرتك الذاتية ورقم جوالك وسنتصل بك.

إنها جملة محفوظة يرددها الأغلب وتعني اذهب إلى حال سبيلك!! أصاب الإحباط آدم قليلًا ولكن كنت دائم التواصل معه، أدعمه وأشجعه كما كان هو دائمًا، تلك ميزة ونعمة وجمال وهدف من الحياة أن تجد من تهتم لأجله وأن تدعم من يحتاج إلى الدعم وأن تكون سببا لنشر ابتسامة فوق شفاه الآخرين، ظللتُ أشجعه كلما تواصلنا هاتفيا أو العطلات التي أتواجد بها معه، نصحته بأن يدعم نفسه بعدد من الدروس الخاصة التي تعطيه ولو بعض الخبرة النظرية فقد تكون لها نتيجة، أخذ مني النصيحة وتوجه إلى بعض المراكز باحثًا عن الدروس التي تمكنه من العمل في المجال الهندسي وبدأ في تلك الدروس فعليًا، ظل على تلك الحالة لفترة ما، صرف في تلك

الفترة مبلغًا من المال كان في أشد الحاجة إليه، فالطبيعي أن تتخرج من الجامعة لكي تعمل وتحصل على المال لا أن تصرف المال لكي تعمل!!

مرت الأيام وآدم يبحث عن العمل حتى شعر بأن الوضع مزرٍ ولن يتمكن من تحقيق أحلامه، خصوصًا أن حنان كانت تطلب منه أن يتقدم لخطبتها، وكان هذا يزيد من الضغط النفسي عليه، فقد روى لي آدم في إحدى المرات عن إحدى الحوارت وكانت:

- ألو، كيف حالك يا آدم؟

- بخير، كيف حالك أنتِ يا حنان؟

كان يتكلم بهدوء في الصوت وحالة من الضعف.

- الحمد لله، لمَ أنت مختفٍ؟ لم أرك منذ فترة طويلة أو أسمع صوتك؟

وكان صوت حنان غاضب قليلًا وبه حالة من العتاب المعتاد.

- أعتذر لقد كنت مشغولا قليلًا.

قالها وهو يعلم ما سيأتي بعده، فهو يعلم أن حنان، ستنفعل وستزيد من الغضب لديها وسيتم فتح كل موضوع يزيد بينهم الغضب، أو لا يعلم كيف سيتصرف!!

- مشغول!!

قالتها بغضب شديد وبدأ الصوت في الارتفاع والانفعال في الكلمات.

- مشغول أم أنك لم تعُد تحبني، لم تعُد تهتم بي، أنت لست آدم الذي أحببته وعرفته عن قرب، آدم الذي يحادثني كل يوم، يهتم بي، لم يكن ينام دون أن يسمع صوتي ويطمئن عليّ. أين تلك الأيام التي كان الهاتف مشغول لأننا دائمي الحديث وأحاديثنا تمتد لساعات، أين أيام الحب والاحتواء، أين أنت وأين أنا؟!

- أنا أيضًا وأحبك أكثر مما كنت أحبك قبلًا، فقط ما في الموضوع أنني انشغلت قليلًا.

- انشغلت قليلًا، أم انشغلت عني، فبها فرق كبير!! فأنت حتى الآن لم تأتِ إلى أبي وتطلب منه يدي، ولا أعلم لماذا، فكلما أتحدث معك تُخبرني أن ننتظر، إن كنت لا تريد فأخبرني يا آدم، لا تحبسني بجوارك إن كنت لا تريدني.

- من أخبرك بهذا! كيف لا أُريدك وأنتِ حب العمر، فأنتِ النعمة التي بالأرض، أنتِ من أنسى بجوارها كل هم الحياة، فأنت القلب والعقل والروح.

- لماذا إذن تؤخر أن نرتبط؟ فليس لدي تفسير لهذا التراخي والتباطؤ!

- لأنك تعلمين جيدًا أنني حتى الآن لم أجد عملًا، وأنت تعلمين جيدًا إن أباكي لن يوافق إن ذهبت إليه وليس لدي عمل، يجب أن تشعري بي فإنني أختنق، أشعر بأني أحمل همًا ثقيلًا، فأنا أحبك ولا يمكنني تصور تلك الحياة بدونك وأشعر أن كل شيء يسير في اتجاه إبعادك عني، أنا لا أخبرك بمعاناتي كي لا تتألمي، إنني أقاتل منفردًا، فأرجو ألا تأتي تلك الضربات الخفية من جانبك، فحينها لن يتحمل قلبي وسأموت في تلك اللحظة.

كالعادة فحنان قلبها طيب إلى أبعد الحدود تنفعل بشدة ولكن تعود إلى الهدوء بمجرد احتوائها، عادت إلى هدوئها والحبيبة الجميلة:

- كل هذا تتحمله من أجلي، أعتذر لك، فإني أحبك كثيرًا أيضًا ولا أتخيل ألا نكون معًا، فأبي يُخبرني كل يوم بطالب ليدي، وأنا أرفض، وهنا في المنزل يزداد الضغط وأنا أيضًا غير قادرة على التحمل، يجب أن تجد حلًا وفي أسرع وقت.

أخبرني آدم أن هذا الحوار يتكرر كثيرًا وهو يعاني أكثر في كل مرة، فهو يحبها إلى درجة الجنون ولا يتخيل أن يستسلم للظروف وأن تكون حنان لغيره، لا يتقبل هذه الفكرة.

• • • • •

أخبرني آدم إنه لا يتخيّل أن يستسلم للظروف وأن تكون حنان لغيره، لا يتقبّل هذه الفكرة.

مرت الأيام ويزداد الوضع سوءًا، وقرر حينها آدم بالتفكير في الهجرة والبحث عن عقد عمل من خلال إحدى شركات التوظيف، وهو يعلم أن تلك الشركات ستمتص منه مبلغًا صعبًا، فإنها كمص الدماء، ولكن لم يعُد لديه خيار آخر، وبالفعل في خلال شهرين تمكن من الحصول على عقد عمل في إحدى الدول العربية وسافر سريعًا وبعد أول شهر عمل أرسل والده لكي يطلب له حنان، وبالطبع لم يرفض والد حنان، ففي هذه الحالة آدم مهندس في إحدى الشركات بإحدى دول الخليج بمرتب جيد جدا، وهذا هو المطلوب، شخص يعمل ومرتب جيد، وتمت الخطبة وتمكن آدم بعد ستة أشهر من النزول في إحدى الإجازات عن طريق علاقته الطيبة بمدير الشركة وتم الزواج وعاد إلى العمل مرة أخرى بزوجته وحبيبة عمره وقد حقق ما تمنى.

كنت حينها أنا قد التحقت بالقوات المسلحة، فقد مر وقت طويل في الإجراءات حيث إنني كنت مرشحًا للدخول كظابط احتياط ومررت بجميع الإجراءات وقبل الترحيل تم إرسال فاكس بتحويل مجموعة من المرشحين ظباط احتياط إلى أفراد وترحيلهم وكنت أنا من ضمن تلك المجموعة، تم ترحيلي والتحقت بالقوات المسلحة بعدما مر وقت طويل منذ أن بدأت

الإجراءات، فكلها أيام تمر وسنوات تنقضي دون إنجاز يُذكر!!

• • • • •

بدأتُ حياتي العسكرية وتحولت من شخص مدني حر طليق إلى فرد مقاتل وجندي بالقوات المسلحة، تنقلت من مركز التدريب بعد أن مرت الأيام التي كانت كفيلة بتحويلي إلى رجل عسكري مُلتزم مُطيع مُقاتل، تنقلتُ من مركز التدريب إلى الفرقة التابع لها ثم الكتيبة المحددة لنا ثم استقريتُ بالوحدة الموجودة بالعين السخنة الواقعة على البحر الأحمر.

• • • • •

ثم استقررت بالوحدة الموجودة بالعين السخنة الواقعة على البحر الأحمر.

تم استقراري بتلك الوحدة ((النقطة الصغيرة)). كانت عبارة عن ثلاثة أدوار على الطريق السريع وذلك الطريق فاصل بين وحدتنا الصغيرة وجانبه الآخر إحدى القرى السياحية والتي تُدعى بقرية الحجاز تمتلكها إحدى السيدات تُدعى مريم سنها لا يتخطى الأربعين من السنين الأرضية، وكانت تلك القرية ممتلئة عن آخرها من زوارها وساكنيها وعامليها، كانت الإدارة بتلك القرية إدارة ناجحة، وكانوا دائما يذكروننا بإرسال الطعام إلينا أو الاهتمام بنا كأشخاص، أما عن وحدتنا كانت لا تتعدى مساحة الـخمسين متر مربع، عبارة عن غرفة أفراد للمبيت وغرفة للطعام وأخرى للاسلحة، تتوزع تلك الغرف على الثلاثة طوابق وأعلاهم برج للمراقبة يحتله أحد أفراد الوحدة لمراقبة السماء والبر والبحر فذلك هو عملنا، وحول المبنى يوجد فناء يحيط به من كل الجهات، ذلك الفناء ليس كمثل فناء باقي الوحدات يحيطه سور

مبني جيدًا عالي الارتفاع، لكن فناء وحدتنا كان مفتوحا على الطريق محاطا بسلك شائك بالٍ، مما أعطانا القدرة على التواصل مع الطريق ومن يعملون بالقرية التي أمامنا. . . كدتُ أنسى، بجوار الوحدة على بعد عشرون متر يوجد أحد الأكواخ الصغيرة لرجل يُدعى العم حمزة.

• • • • •

العمّ حمزة.

كان العم حمزة متزوج ولديه أسرة جميلة ويحيا كأي أسرة مصرية من الطبقة المتوسطة، تكفي خيرها شرها، تسير الأيام بشكل جيد، فالعم حمزة في أفضل حال والأسرة في حالة من الهدوء والتوافق الأسري بينهم عالٍ جدا. يمر اليوم كمثل بقية الأيام، العمل صباحًا ثمّ العودة ظهرًا وتجمع كامل للأسرة ليلًا أمام التلفاز وحالة من الحب والتعاون والحديث والمزاح ثم النوم وهلم جرا. . . كان العم حمزة يعمل مهندسا في مجلس المدينة بالسويس. كانت الأمور تسير بشكل جيد ولكن لم يكن محبوبا!! لا تسئ فهمي، فقد كان محبوبا جدا من أصدقائه وأقاربه وجيرانه ولكنه لم يكن محبوبًا من العملاء والمواطنين الذين يبغون تيسير أعمالهم بطرق مشبوهة. فالعم حمزة لم يكن يرغب أو يريد أن يسير الأمور بالرشاوى أو المخالفات أو ببعض الهدايا، كان أمينًا في عمله. لذا لم يكن محبوبًا. فالحب في هذا الزمن يرتبط ارتباطا وثيقًا بالمنفعة. فبلا منفعة لا حب.

قدم طلبا بالخروج على المعاش مبكرا وتمت الاستجابة. مر بعض الوقت بعد ذلك وقرر ترك المدينة والذهاب إلى العين السخنة وعلى بعد مسافة من القرية السياحية صنع كوخًا والتزم به. قرر التوحد هناك بعيدًا عن صخب العالم وضوضاء تلك الحياة اللعينة التي لا تعطي شيئًا بحب. . وكانت أيامه كالآتي: يخرج صباحًا لصيد السمك يأكل ويعطي قططه ويبيع ما تبقى للسياح -الذين يأتون إليه خصيصًا- كي يتمكن من التكفل بمصروفات المعيشة ثم يعود إلى كوخه لقراءة الكتب وتربية الطيور والقطط!! ذاع

صيته في تلك المنطقة وبعض القرى السياحية المجاورة وقد أحبه الجميع دون استثناء، أحبوه فقد كان يعطي الجميع -عُمال القرية، أفراد الأمن، أفراد الوحدات العسكرية- سمكًا وطيورًا للأكل دون مقابل منهم، كان يصلح بين الأشخاص في حالة حدوث مشكلة فالجميع يسمع له ويقدره، حتى السياح سمعوا عنه وأحبوه، كانوا يأتون إليه خصيصًا، هذا هو العم حمزة، هذا الرجل الذي ترك الحياة لصناعة حياة خاصة به، يصنع هو نظامًا لها وقوانين يسنها بنفسه، حياة تستمد قيمتها منه وليس العكس، كسرته الحياة التقليدية فكسرها بحياته الاختيارية. كنا نجلس ونتسامر كثيرًا أنا وهو، كنت أحبه جدا وهو أيضًا يبادلني الحب والثقة، لم يكن يمر يوم إلا ونتحادث فيه، كنت أشعر بأنه أب روحي لي. تعلمت منه الكثير والكثير. ذلك الرجل كان كالنفس الذي أعطاني الحياة. تذكر هذا الاسم ((العم حمزة)).

نعود إلى وحدتنا العسكرية الصغيرة.

• • • • •

نعود إلى وحدتنا العسكرية الصغيرة. . .

كنت أنا ومجموعة من الأفراد هم هيكل وتكوين تلك الوحدة، كنا ستة أفراد، نتواجد جميعًا في حالات الطوارئ، أما في الحالات العادية فيكون أربعة منا متواجدين واثنين في عطلة، كانت تلك هي الحالة الطبيعية، أذكر تلك الحادثة التي كان لها أثر كبير في حياتي، ففي إحدى الليالي كنت أتناول العشاء أنا وباقي الأفراد وكنا في حالة من السعادة والتناغم وتُذكر تلك الأحداث والذكريات الجميلة أو المؤلمة في حياتنا، أذكر أننا كنا نتحادث ودار بيننا هذا الحوار:

قال إسماعيل:

- أتعلمون لقد صنعت لكم الليلة عشاءً ستتناولون أصابعكم خلفه.

رد صلاح:

- لن يكون أفضل من أكلي وصنعة يدي أمس.

وضحك بثقة:

- فليس هناك طباخ ماهر مثلي، ألم تنهوا على الأكل وبقاياه أمس، لقد غسلتم الأطباق بأفواهكم.

وأعاد ضحكته مرة أخرى ونحن أيضًا.

أجبته أنا:

- نعم لديك الحق يا صلاح، لم أكن أستطيع القيام، كنت أبحث عن أي بقايا للأكل ولكن ليس لحلاوته بل لأنني كنت جائعا والجائع يأكل حتى التراب.

ضحكت أنا وإسماعيل وكريم وصلاح جدا.
حتى صلاح نفسه لم يستطع التوقف عن الضحك:
- هكذا إذن يا مجهول، انظر من سيصنع لك الترمس الذي تحبه.
ورفع رأسه للأعلى تعبيرًا لانتصاره وضحك:
أجبته سريعًا:
- لا يا صلاح إنني كنت أمزح فإن أكلك لا يُعلى عليه، وترمسك ما أروعه!
عاد إسماعيل بمزاحه:
- أهكذا يا مجهول! بعتني ببساطة من أجل الترمس، أنت حر. .
ونظر لي ضاحكًا:
- ولكن حقيقة لديك الحق، فأنا أيضًا أعشق ترمس صلاح.
وضحكنا جميعًا ماعدا كريم كان شاردًا ولاحظنا هذا، سألته سريعًا:
- ماذا بك يا كريم لما لا تضحك معنا، ماذا بك؟
أجابني وهو مكتئب:
- لا شيء.
قفز إسماعيل في الكلام:
- كيف لا شيء ماذا بك، فحاجبك يرتسم ١١٠ ووجهك مملوء بعلامات الضيق، تكلم يا بني، ماذا هناك، هل ضايقك أحد؟
أجابنا كريم ويظهر الألم والضيق في تعابير وجهة وإجهاد نبرة صوته وعيناه التائهتين:
- أشعر بأنني لست إنسانًا مثل بقية البشر. .
ترقرت عينه بالدموع، أما أنا فصمتُّ ولا أدري ماذا أجيب، كانت إجابته صاعقة لي، فكريم من الشخصيات المرحة المحبوبة بيننا، فكيف يخرج منه

ذلك التعبير، سريعًا عانقه صلاح وربت على ظهره قائلًا:
- ماذا بك يا فتى، أشعر بأنك تعاني!
ثم أخرجه من حضنه ناظرًا إلى عينيه مكملًا:
- شاركنا بما في داخلك، شاركنا أن نحمل معك، أيها البشري، فأنت إنسان سواء شئت أو رفضت فأنت أذكى من إسماعيل.
وابتسم صلاح وإسماعيل وأنا محاولين التخفيف عنه وابتسم كريم ابتسامة خفيفة ومسح عينيه قائلًا:
- شكرًا يا أصدقاء، لماذا يوجد من البشر طبقات؟ لمَ هناك أشخاص يعيشون حياة الترف، لا يعانون التعب، يشتري تلك الملابس وذاك التليفون، ثمّ في فترة لا تتجاوز الأشهر القليلة يستبدلهم بملابس أخرى وتليفون أحدث، ثم يخرجوا من ذلك البيت الكبير بتلك العربة الفارهة ليذهبوا إلى شرم الشيخ أو العين السخنة مستمتعين بتلك الحياة؟
فتحت أنا فاهي مندهشا من الكلام وكأنني لم أنشغل أو أفكر فيه يومًا، كما اندهش إسماعيل وصلاح أيضًا، ظللنا صامتين منصتين. أكمل كريم حديثه بألم وألم وهو يرمي بحجر من يده على الطريق:
- لماذا هناك أفراد لديهم ملايين الجنيهات وآخرين أمثالنا لا يجدون قوت يومهم، أتعلمون لم أرَ والدتي منذ متى؟!
سريعًا كعادته قفز إلى الكلام إسماعيل مجيبًا:
- منذ أسبوعين، ألم تكن في عطلة!
مكملًا بمزحة:
- علمت الآن. فأنت تستعطف مشاعرنا لكي تحصل على العطلة غدًا بدلًا منا، يا جني أنت.

قالها ضاحكًا ونحن أيضًا:
قال مؤكدًا على كلامه صلاح:
- ليس لدي مانع يا كريم. . .
نظر إليّ صلاح مكملًا حديثه وموجهه إليّ:
- استبدل يا مجهول مكاني غدًا بكريم وأنا الأسبوع القادم.
أجبته بمحبة، ناظرًا إلى كريم:
- بالطبع سأفعل هذا حتى وإن لم تطلب.
وضحكنا جميعًا إلا كريم بكى بكاءً مرًا. . . شعرت به، شعرت بكم الألم الذي يملأ قلبه، شعرت وكأنه عاجز وقليل الحيلة، ماذا بداخله لم أكن أعلم ولكني أشعر بأنه يحمل همًا ثقيلًا، ألمًا غير محتمل.
سريعًا عانقه صلاح قائلًا:
- أخبرني ماذا بك، ماذا يا كريم، سأساعدك حتى وإن وصل الحال أن أضع حياتي لك، أخبرني يا صديق.
حاول كريم التماسك ونظر إلينا ثم لصلاح قائلًا:
- أشكرك يا صديق، إنه من الحسنات للمرحلة العسكرية تلك، أن أتعرف إليكم فأنتم بكل حق إخوة وأحباء، سأخبركم. . أمي اشتقت لها جدا، فأنا لم أرها من أكثر من ثلاثة أشهر.
قالها وصمت محاولًا عدم البكاء، ونحن صدمنا ولم نستطع الكلام، حتى تمكنت أنا من حل عقدة اللسان وتخطي الصدمة وسألته:
- كيف، فأنا لا أدرك، فأنت في الثلاثة شهور السابقة، نزلت ما يقرب من أربع عطلات، أين كنت؟ هل حدث مكروه لوالدتك؟؟ أجبني يا بني.
أجابني:

- والدتي بخير الحمد لله، نعم نزلت أربع عطلات وفي كل مرة أنزل للقاهرة بدلًا من قرية عرابة أبو عزيز بمركز المراغة بسوهاج.

- لماذا؟!

قلتها أنا وإسماعيل وصلاح في نفس واحد.

- للعمل، فالحالة المادية لدينا كمثل الكثير، نحن أسفل خط الفقر، حالة معدومة، بالكاد نتحصل على الأكل، ومنذ دخولي إلى القوات المسلحة وتم وقف مصدر الدخل للبيت، فكلما نزلت عطلة ذهبت للعمل وإرسال المال لوالدتي ووالدي وإخوتي كي يتمكنوا من مواصلة الحياة، ألم أخبركم أننا أقل من البشر؟ إننا مثل الحيوانات نبحث عن قوت اليوم، نصرخ ولا مجيب ولا معين، نطلب ويتم إهانتنا، إننا فئة تحت الصفر، لا وجود لنا، فقط من يملكون المال يستطيعون العيش والحياة، فنحن في بئر النسيان واللاوجود. نحيا للذل والإهانة ونعمل كي نتمكن من الأكل لكي نحيا، كي نعمل لنحيا لنعمل لكي نتمكن من الأكل وهلم جرا حتى الموت، هل تعتقدون أن أحدا ينظر لنا أو يهتم؟ لا أحد. .

ماذا نسمع وماذا يحدث! ما هو ذلك الألم وما تلك الحياة! استمر الحوار بين تألم كريم ومحاولات منا أن نخفف عنه ونحن داخلنا جزء من الألم ولكل منا ألمه أيضًا.

• • • • •

ونحن داخلنا جزء من الألم ولكل منا ألمه أيضًا.

قفز شيطان إلى الحوار:

- إنها الحياة فالبشر فئات، هناك سادة وهناك عبيد، وجد بشر للحياة ووجد آخرون للموت. . وجد بشر للاستمتاع وآخرون للذل. . وجد بشر

لكي يُستعبدوا وآخرون للسيطرة. . . وجد من يملك ووجد من يُمتلك.
قانون الحياة.
أجابه ملاك:
- إنها الحياة فقد أعطى الله لكل شخص رزق ولكل شخص حياة، لا أحد يمتلك الأربعة وعشرين قيراطا صحة أو مالا أو سعادة أو. .
هناك من يمتلك عشرين قيراطا صحة واثنين بنين واثنين مال.
وآخرون عشرين قيراطا مال واثنين صحة واثنين بنون.
إنها حياة عادلة للجميع، أربعة وعشرون قيراطا ولكنها تختلف في التوزيع.
أجاب شيطان بقوة على ملاك:
- كيف هذا وما هذا التفسير العقيم وما هذا الكلام الضعيف! الحجة والمداعبة فقط للمشاعر الغبية، فأنت كاذب. . . إن الحياة حظ وتملك.
هناك من ولد في نعيم ومن ولد في فقر، هناك من ولد للخدمة وآخر ولد للتسيد، هناك من ولد للقول يا باشا يا ريس يا بيه ولد لكي يتمم الأوامر، أتحب أن تراهم؟!! إذن انظر إلى أمثال كريم، لعلك تبصر الصورة جيدًا. .
وعلى الطرف الآخر من ولد لكي يأمر ويتمنى. هكذا الحياة.
صرخ ملاك رافضًا لوصفه بالكاذب قائلًا:
- لست كاذبًا، أنت من تُهاجم وتحاول إظهاري بأنني ملتوٍ كي تثبت ما تقوله. . لا وألف لا، إن الحياة بها العدل ولا أحد يُحمله الله أكثر من حمله، فلكل منا حمله وأنت تعلم ذلك. فهناك من لديه ما لا يُحصى من المال ولكنه يحمل المرض بجسده محروما من التمتع بأشياء أخرى وهناك من يمتلك المال ولا يمتلك البنين. . . وهلم جرا. . فلكل منا رزقه وهمه، احمل هذا وهذا، من ولد فقيرًا يستطيع الاجتهاد والاغتناء ومن ولد غنيا

يستطيع إهداره وتحوله إلى فقير. وإن أردت الرؤية انظر إلى محبة صلاح وإسماعيل، انظر إلى حب صلاح وصدقه، كيف أراد التخلي عن عطلته من أجل آخر، إن أردت أنت فلتنظر للصورة الكاملة، لعلك ترى الصورة جيدا.

• • • • •

استمر الحوار ولم أعد أحتمل من يخبرني بالحقيقة ومن يكذب، أيعقل كذب الاثنين أو صحة الاثنين، إن الحياة لغزًا مرعب مليء بالأسرار والأسئلة التي لم تجاب ولا تجد لها أجوبة حاليًا، لم أستطع أن أظل قادرًا على الوقوف، اهتزت قدمي لم تعد تستطيع أن تحملني، خارت قواي فجلست على ذلك الرصيف ساندًا ظهري على حائطه وضعت يدي على أذني، أغمضت عيني وعدت مستذكرًا باقي ما حدث.

• • • • •

أغمضت عيني وعدت مستذكرًا باقي ما حدث.
حاولنا جميعًا الخروج من تلك الحالة الكئيبة المؤلمة، فحاول كل منا تذكر شيء جميل أو مضحك أو يدعو للتفاؤل، حتى جاءني الدور للحكي فقررت أن أقص لهم عن ((هنية)).
ذكرت لهم حينها ذلك الموقف الذي لن يُمحى من ذاكرتي طالما وجدت على قيد الحياة، قصصت لهم ما حدث لي مع قطتي، نعم قطتي لا تنزعج، فأنا أحب القطط جدا، بل أعشقها ولدي في المنزل واحدة أدعوها هنية وهي قلب القلب وروح الروح والحياة وأقرب الأصدقاء لي. في أحد الأيام وضعت لي القطة قطتين صغارًا، كم كنت فرحًا بهم، فما أروع البيت الذي يمتلك قططًا صغيرة، إنها ملائكة، أذكر كم أعادوا لي روحي وفرحي وحياتي، كنت أشعر بأنهم أطفالي وأنني أخيرًا أصبحت والدا، مرت الأيام تقريبًا مدة شهرين وطالبني والدي بأنه لابد من توزيع القطط الصغيرة على الأصدقاء أو الأقارب، فلم يعد البيت يحتمل وجود قطط أخرى. عانيت كثيرًا، فكيف على والد أن يفرط في أبنائه، لم يفهم والدي هذا أو يقدر مشاعري -كالعادة. . فالمجتمع بأفراده، لا يرون إلا ما تربوا عليه فقط، أو ما أمنوا به فقط- طلب أخي -نعم أخي، فلدي عدد من الإخوة، ولكن لم تكن بيني وبينهم الرابطة القوية، فقط يجمعنا المنزل وبعض الأحيان طاولة الأكل- مني القطط، وتم نقلهم إلى منزله وهو يبعد عن منزلنا قرابة الأربعة شوارع. . .
ومرت الأيام ما يقرب من شهرين آخرين وإذ بي أجد قطتي آتية من على سطح المنزل المجاور لنا وخلفها أطفالها القطط الصغار! نعم لم تنسهم، ذلك الحيوان لم ينس أطفاله وظل يبحث عنهم يوميًا متنقلًا بين البيوت من على الأسطح حتى وجد أبناءه وعاد بهم إلى بيته. ما هذا الحب وما تلك المشاعر

لقد تخطوا البشر حقًا.
بالطبع تعجب زملائي أفراد الوحدة العسكرية مما قصصت لهم وهناك من صدق وتعجب على ما يحدث من الحيوانات وهناك من استهزأ بالطبع، وهناك من شكك فيما قصصت. المهم فلنعود إلى جلستنا ونحن نضحك ونتذكر كل منا ذكرياته. فجأة وجدنا سيارة على جانب الطريق وتستعد للدوران ودخول القرية فباب القرية مواجها لجلستنا وفجأة ظهرت عربة قادمة من الخلف بسرعة غير طبيعية وحدث التصادم. . ركضنا سريعا نحوهم. . حاولنا إخراج المصابين، العربة القادمة من الخلف كان يقودها شاب في العشرينات من عمره ولم يحدث له شيء، هذا الشاب يذكرني بتلك الفئة التي تحدث عنها كريم، الفئة المرفهة والتي وجُدت للنعيم والتسييد. . أما العربة المتوجهة للقرية كان يقودها رجل في الخمسينات وكانت إصابته خطيرة وبجواره ابنته في العشرينات من عمرها، لم تُصب بأي أذى جسدي ولكن أصابتها صدمة رؤية والدها والدماء على كل جسده. . . طلبنا الإسعاف وقد حضر بسرعة -بالطبع فإننا بجوار قرية سياحية- فالحياة فئات ولكل فئة اهتمام ولكل فئة قيمة ومعنى!! إنها الحقيقة كما قال كريم. . . تمّ نقل المصابين للمستشفى وعرفنا فيما بعد أن الرجل المصاب كان والد لشاب يدعى شادي يعمل ضمن أفراد أمن القرية وكان والده يستعد لدخول القرية للاطمئنان على شادي ابنه، والفتاة اسمها مروة وكانت أخت شادي، تم نقل المصابين وانتهى الموقف. ولكن لم تنته علاقتي بالموقف!
مرت الأيام وكنت دائم السؤال عن والد شادي وأخته فعلاقتي بشادي جيدة وهو يهتم بنا من إرسال أكل أو السؤال علينا. . . تابعت شادي

يوميًا بسؤاله على والده وأخته وانتظرت حتى أول عطلة بعد تلك الحادثة واشتريت بعض الورد وذهبت إلى منزل شادي للاطمئنان على والده وأخته وتوالت الزيارات والاهتمام. وزاد الود والتقارب بيني وبين مروة، أعترف أنها لم تتمكن ولم يتمكن أي شخص آخر من أخذ مكان نيرمين داخل قلبي ولكن. . لكن مروة حصلت على مكانة مميزة بقلبي وتقاربنا كثيرًا وكثرت الاتصالات بيننا والأحاديث بالساعات. . وبدأت مرحلة الحب في حياتي بعدما اقتنعت أنني أغلقت ذلك الباب للأبد.

• • • • •

لكن مروة حصلت بمكانة مميزة بقلبي وبدأت مرحلة الحب في حياتي بعدما اقتنعت أنني أغلقت ذلك الباب للأبد.

مرت الأيام وأتممت فترة التحاقي بالقوات المسلّحة. أتممتها على خير. لم يشك مني أحد. لم أتذمر أو أتمرد. كنت مثالًا في الانضباط والالتزام في مواعيد الاستيقاظ أو الخدمة. كنت متيقظا طوال خدمتي. تركتُ بصمة وعلاقة جيدة مع الجميع وبالأخص مع قائد السرية التي تواجدت بها، النقيب حازم أحمد -هذا النقيب الذي كان يعاملني معاملة حسنة وباحترام كامل، قائد بمعنى الكلمة يهتم بأفراد وحدته، يعطي مثالا حيا لما يخبرنا به، منفتح ومتقبل للآخر، متواضع، بسيط، سلس في تعامله، لم تكن لديه أي صفات غرور أو تعالٍ، محبوب من الجميع، تعلمت منه الكثير والكثير- أتذكر أحد الجمل التي كان يرددها دائمًا في حواراته معي، كان يقول: لديك خياران، إما أن تكون أنت أو أن تكون هم، الاختيار اختيارك!! إن أردت أن تكون أنت فآمن، التزم، افعل، ولا تنتظر مقابل أو نتيجة مرضية، يكفيك أن تكون أنت في إيمانك أقوالك أفعالك. أنهيت خدمتي

وخرجت إلى الحياة الملكي والعودة إلى نقطة الصفر والبداية من جديد. بحثتُ عن عمل وكالعادة والطبيعة في مدينتي بل دولتي بأكملها لا يوجد عمل، حالة من المرارة والتعب!! ألا تتذكرون ما حدث مع آدم فقد أخبرتكم حينها. بدأت التحرّك بحثًا عن وظيفة وعن مال، تابعت الوظائف المعروضة من خلال الصحف أو مواقع الإنترنت، أذهب إلى هذا العنوان وإلى ذلك المقر، أدخل هذه الشركة وأخرج إلى تلك ومن هذا المكتب إلى ذلك. تحركت كثيرا دون منفعة أو جدوى. قد أصابني اليأس، الوضع في غاية الصعوبة والألم!! أحتاج أنا إلى العمل لأكثر من سبب، أولًا: لكي أتمكن من إنجاز الخطوبة وإتمام الزواج من مروة، فقد تمت خطبتنا بمجرد خروجي من الجيش، وكانت نعم السند والظهر لي، ثانيًا: لأنني أرغب في تحقيق كياني وتحقيق الذات والنجاح. . . قررت حينها بالذهاب إلى إحدى شركات التوظيف وللعلم دائما محافظات الصعيد في حالة من النسيان والشركات الموجودة بها بلا قيمة لذا كان إلزاما على الذهاب إلى العاصمة قاهرة المعز، فشركات التوظيف هناك أفضل وأكثر والفرص المتاحة أكثر بكثير عما هو هنا، لعلي أحصل على عقد مناسب في إحدى دول الخليج. فهناك الأمور أفضل ماديًا وإن كانت الغربة مؤلمة. شددت رحالي واتجهت إلى العاصمة. أعطاني صديق ورقة بها عناوين شركات التوظيف. قسمتها إلى أربعة شركات يوميًا. وبدأت التحرك، مر يوم اثنان ثلاثة. أسبوع اثنان فشهر اثنان ثلاثة، دون جدوى!! الأماكن المتاحة سيئة ورواتب ضعيفة لا تستحق ألم الغربة معها. أصابني اليأس. الأمور تزداد تعقيدًا لا معين لا معين لا معين. الوحدة والعجز امتلكوني بالكامل، أنا الآن نزيل في أحد الفنادق وكل يوم يمر يستنزف مني مبلغا من المال أنا في حاجة إليه لذا قررت حينها بالخروج

صباح الغد والذهاب إلى أقرب شركة توظيف وقبول أي عرض سيطرح أمامي، لوقف نزيف المال فلم يعد بطاقتي الاحتمال ماديًا أو حتى نفسيًا!! لابد من التنازل أحيانا لتعبر الأمواج، كانت تلك الكلمات من مروة لي. . وبالفعل إنها صادقة لابد من التنازل أحيانًا بل وكثيرًا لتعبر الأمواج. . . لابد من أن تسير مع خطوات الحياة. فحيثما تأخذك اذهب فذاك قدرك. ولن يعينك أحد. لا تنتظر. اترك قدمك للطريق واترك قلبك للحياة اترك نفسك لتصبغك الأيام بصبغة الجميع. اقتل مشاعرك. واطرح إيمانك جانبًا. لا تهتم، تناسى قيمك واذكر فقط مكاسبك. تناسى اعتقاداتك القديمة واعتقد بما يُملى عليك. تلك الوصفة هي وصفة النجاح والارتياح، إن أردت أن تحيا فعليك بتلك الوصفة، تلك هي الحياة!!

• • • • •

خرجت في ذلك الصباح استقليت العربة للوصول إلى مقر شركة التوظيف وكانت تُدعى الرحمة. اسم لا يمت بصلة للمعنى، فما هو إلا سمسار يلعب على وتر الاحتياج والتوفيق بينك وبين صاحب العمل حاصلًا على مبلغ وقدره من دمك وعرقك!!

هاتفتني مروة وأخبرتني أن أوافق على أي عرض يُطرح عليّ، فالألم والتعب والمعاناة كلها سنة أو اثنين ثم نرتاح ونفعل ما نريد. . . أجبتها بأنني سأفعل ذلك من أجلها وأغلقت الهاتف. وصلت العربة، ترجلت منها وتحركت على العنوان حتى باب الشركة. . وقفت بمدخلها، أخذت نفسا عميقا وقررت الدخول، ولكن في تلك اللحظة رن جرس الهاتف. . أجبت قبل الدخول للشركة:

- ألو أهلًا يا آدم.

كان صديقي آدم. . دائمًا متواجد. الداعم الحقيقي والصديق الحق.
- ألو كيف الحال يا مجهول. . . ماذا صنعت؟
- بخير. . لم أصنع شيئًا حتى الآن. الحال كما هو عليه. ولكن اليوم سأوافق بأي عرض يُعرض عليّ. لن أنتظر ثانية.
قلتها بألم وقهر.
ابتسم آدم بصوت مسموع، شعرت به.
- ليس الحال بذلك السوء يا صديقي.
- بل بهذا وأسوء بكثير .
- ليس يا صديق بهذا التشاؤم، ألا تثق فيما أقول يا مجهول؟!
كرر ابتسامته بصوت عالٍ تلك المرة، مما أثار استفزازي، أجبته غاضبًا:
- ألديك أخبارك جيدة أم لديك بعض الوقت يا آدم وترغب بالتسالي؟ لست في مزاج يسمح بذلك.
- لا ياصديق يا عزيز، لديّ أخبار جيدة جدا يا صديق، لديّ أحد المعارف يحتاج إلى مهندس في مدينة المنيا فأخبرته عنك.
- المنيا. . جميلة. وماذا بعد؟
- أعطيته رقم هاتفك. وسيتحدّث إليك اليوم بالمساء. ألغِ فكرة السفر وانتظر منه مكالمة واقبل بأي راتب فذاك أول عمل لك. فما نريده هو بعض الخبرة وهذا ما سيأتي بالراتب الجيد فيما بعض. . اتفقنا.
- اتفقنا. سلام
- سلام.
دخل بعض السلام لقلبي ومنذ فترة طويلة لم أشعر ببعض الارتياح والأمان، عاودت خطواتي متجها إلى سلم تلك العمارة عائدًا إلى حيث أتيت وانتظارا

لذلك الاتصال المهم والذي انتظره منذ فترة طويلة!!
بالفعل أتاني الاتصال مساء ذلك اليوم، واتفقنا برغم سوء الراتب الذي قد لا يبقى منه شيء بعد مصروفات المأكل والمشرب وفواتير الهاتف!! ولكني وافقت بناء على نصيحة آدم، في البداية لابد من القبول للحصول على الخبرة التي تأتي فيما بعض بالراتب الجيد، وافقت من أجل مروة فهي نقطة ضعفي التي علمت الحياة أنها يمكن إجباري على أي شيء بها. اتفقنا على موعد بدء العمل، وبدأت خطوة جديدة ومرحلة مختلفة في حياتي ((العمل)).

• • • • •

وبدأت خطوة جديدة ومرحلة مختلفة في حياتي

((العمل))

بدأت العمل، لم يكن العمل كما كنت أتصور حالة من الالتزام والجهد والأمانة! لكني وجدت اللوع وطرق للالتفاف والمضايقة، الجهد لا يعني شيئًا بجوار العلاقات والنفاق والتطبيل!! نعم كان هذا هو الحال.
مرت فترة وأنا أعمل في المنيا ولكني لم أستطع التأقلم أو التكيف مع ذلك الوضع وخاصة مع قلة الراتب الذي أحصل عليه، حتى حانت اللحظة الأخيرة فتركت العمل وذهبت إلى آخر ومن الآخر إلى آخر، فكل فترة ألتحق بعمل حتى يأتي الوقت الذي لا يمكنني فيه تحمل ما يحدث فأتركه لمعاودة البحث مرة أخرى ومعايشة ألم البحث واستمر هكذا الحال لأكثر من ثلاثة أعوام، لم أفعل فيها شيئًا، لم أتمكن من صناعة اسم أو ادخار المال حتى ضربني اليأس واستسلمت وتركت نفسي للوضع كما يكون، بدأت عملا مع أحد المقاولين الصغار، كنا نُشرف على عدد من العمارات كان خمسة عشر خاصة بالإسكان الاجتماعي بأحد المشاريع بالمدن الجديدة التابعة لمدينة أسيوط، ولكن كعادتي لم أتمكن من التكيف أو التأقلم، كان كل يوم يمر يؤلمني ويترك داخل روحي اكتئابًا جديدًا وهكذا كانت الأيام، أذكر خلال تلك الفترة قابلت مهندس مؤمن كان صديقا لنا بالكلية أخبرتكم عنه قبلًا. فهو الصديق الثوري صاحب القيم والمبادئ. . تبادلنا السلام والقبل وعبارات التوحش. ثم تركته، لقد كنت في حالة من السعادة عندما أقابل أصدقاء الأمس، هذا شيء يبهجني، فهم يذكرونني بأجمل الأيام وأيام الحماس والقيم التي أفتقدها تلك الأيام!

مرت الأيام بعدها وكنت أحتاج إلى التنسيق مع المهندس المشرف على الموقع المجاور لنا، فسألت عنه حتى أخبرني أحد الزملاء العاملين في ذلك المشروع أن المهندس مؤمن هو من يشرف ويمتلك ذلك الموقع!! ورغم صغر سنه إلا أنه صنع اسما كبيرًا جدا والآن هو يعمل مديرًا لإحدى شركات ((الخرسانة الجاهزة))، نعم مدير، منصب ممتاز بالنسبة لسنه، ولديه الكثير من العلاقات والآن هو يمتلك الـثلاثة عشر عمارة التي بجوار موقعنا!! نعم إنها ملك للمهندس مؤمن، كيف ومتى ومن أين، أليس مؤمن دفعتي؟ فمتى تمكن من صناعة كل كهذا ٢١١! تلك كانت الأسئلة التي هجمت أثناء الحوار على عقلي، أجابني الزميل:

- نعم إنها ملك للمهندس مؤمن فالمهندس مؤمن ذائع الصيت. . كل ما في الأمر هو كيف يمكنك استغلال مكانتك ومنصبك أيا كان، كيف يمكنك استغلاله بالشكل الأمثل لتحقيق مكاسبك الشخصية، ببساطة ذلك ما فعله المهندس مؤمن، فعن طريق إدارته لتلك الشركة تمكن من صنع علاقات ودوره هو تيسير الأعمال لهذا أو ذاك بشرط وهو الدخول بنسبة بها، مما اضطر بعض العملاء أصحاب الأعمال المشبوهة والمخالفة بالموافقة، ولما لا طالما سيستفيدون، فالإفادة للجميع. بدأ الموضوع بعمارة وعن طريق المخالفات والرشاوى والأعمال المنافية للمواصفات تمكن من زيادة العمارة من اثنين لأربعة لعشرة حتى وصلوا اليوم لثلاث عشرة عمارة، الجميع يستفاد. وقد عرف المهندس مؤمن من أين تؤكل الكتف!

• • • • •

صاعقة جديدة تضرب عقلي وقلبي وضميري، فحتى اليوم أنا لا أمتلك شيئًا، فأنا والمهندس مؤمن نفس الدفعة، بل إني أكبره سنًا!! بل دعك من هذا

وانتبه للقيم، أين هي القيم والمثل والمبادئ، أين العفة وأمانة اليد، أين أيام الدراسة والحالة الثورية لكل ما هو منافٍ للقيم، أين نظافة القلب ودعم الفقراء، أين المعارضة أين مؤمن زميل الدراسة والمثل الأعلى! انتابتني حالة ضحكة هستيرية، حتى انتهى اليوم، عدت إلى المنزل ولم يفارق عقلي ما سمعت، وظللت مشغول الفكر، ما هذا ومن أنا وما تلك الحياة، ماذا أنا بفاعل؟!!

هكذا هي الحياة. . . وبعد معاناة فكرية امتدت لأكثر من ثلاث ساعات، تركت نفسي للنوم.

استيقظت في الصباح الباكر، تجهزت للخروج للعمل وأنا أتذكر كل ما دار بالأمس، فإما أن أتمسك بقيمي وأتقبل ذلك الفقر المادي والنحس الوظيفي، أو أسلك طريق مؤمن. لي الاختيار!

هبطت من منزلي ذاهبًا إلى موقف السيارات ركبت العربة بصعوبة بالغة كالمعتاد وحدثت نفسي بصوت مسموع وترتسم على شفتيّ بسمة خفيفة:

- بالطبع مؤمن يمتلك عربة بالثمن الفلاني.

وارتسمت الابتسامة على وجهي وارتفع صوتها، حتى لاحظت أن ركاب الميكروباص ينظرون إليّ وقد لاحظوا أنني مجنون، فانتبهت وفي تلك اللحظة رن جرس الهاتف، نظرت إلى التليفون إنه صديقي طفل الشارع أجبته:

- ألو، كيف حالك يا صديقي؟

جاء رده:

- إنني بخير، لقد تغيبت منذ فترة ولم أسمع عنك شيئًا، فأصابني القلق عليك، أأنت بخير؟؟

كان يتكلم بصعوبة بالغة وقد لاحظت ذلك، أجبته:

- نعم إنني بخير، أعلم أنني مقصر معك يا صديقي ولكن هذه هي الحياة إنها دوامة العمل، سامحني ولكني سآتيك اليوم، ولكن أخبرني هل أنت بخير؟ ماذا بصوتك؟؟

- نعم أنا بخير، سأنتظرك.

إجابة مختصرة أجابها، وكأنه غير قادر على الكلام وأكمل بصعوبة:

- أتمنى رؤياك اليوم، رجاء لا تتأخر يا صديق.

أجبته سريعًا:

- قادم يا صديقي، قادم، أأنت بخير؟

أجابني مختصرًا كلامه أيضًا:

- نعم، نعم، سلام.

انتهى الحوار وانتهت المكالمة ووصلت العمل. دخلت إلى مكتبي، شربت كوب الشاي الخاص بي، ثم باشرت عملي، ويملأ رأسي حديث الأمس الخاص بالمهندس مؤمن وكيف حاله وكيف حالي وكيف أن الأيام يمكنها تبديل وتغيير الشخص. .

قبل نهاية اليوم هاتفت صاحب العمل وطالبت منه زيادة في راتبي، فأنا أعمل وأتعب كثيرًا وراتبي منذ بدأت وهو لا يزيد، الحياة تختنق والأسعار تتزايد وراتبي لا يتحرك، أتعب وأجتهد وأمرض وراتبي لا يتحرك، راتبي الضعيف المنتهي قبل أن يبدأ. أجابني صاحب العمل حينها قائلًا:

- راتبك يا مجهول جيد جدا وكثيرون لا يأخذون مثلك وعليك أن تشكر الله على هذا الراتب، فأنت تعمل لله، أتريد أن تأخذ من مال الله؟! وأنت تعلم يا مجهول أنني أعمل أنا أيضًا لله ولا أكسب شيئا بل لله ومن أجل ألا يتم قطع رزق المهندسين والعمال.

واستمر حوار طويل بيني وبينه، هو يتهرب وأنا أصر وبعد مشادات كثيرة ونقاشات من الخد وهات. . تم الآتي إما أن أقبل براتبي كما هو أو هناك الكثير من المهندسين الذين يبغون الوظيفة وبراتب أقل! حينها أجبته كالآتي:
- إذا هنيئًا لهم ولك، أنا مستقيل.
وأغلقت الهاتف، وظللت أضحك بشكل هستيري وغادرت الموقع وأنا في حالة من الاختناق.
استقليت العربة مغادرًا الموقع وأخرجت الهاتف طالبا مروة وأخبرتها بما حدث. . . هاتفت مروة كي أشعر بوجود داعم لي، لكي أشعر بسند محب وأمين ويشجعني، هاتفتها لأنني في احتياج شديد إليها، إنها اللحظات الفارقة التي تسقط فيها من أعلى جوادك وينكسر فيها ظهرك، تحتاج إلى تلك اليد وذلك الداعم الذي يمد يده ويمسك يدك، الذي ينهضك ويسند ضعفك ويكون العون والقوة والنور وقد كانت مروة بالنسبة لي صاحبة هذا الدور ولكن ويالللأسف كـمرات سابقة كثيرة عنفتني مروة، بل أخبرتني بأنها لا يمكنها تحملي أكثر من هذا، فأنا شخص غير مسئول ولا يمكنني تحمل مسئولية نفسي، فكيف يمكنني تحمل مسئوليتها!! أخبرتني بأنه لم يعد يربطني بها شيء وأغلقت الهاتف في وجهي!! بعدها بقليل هاتفني والدها وأخبرني أن كل شيء انتهى وإن مروة ستتم خطبتها الغد على شخص آخر!

• • • • •

تائه أنا. . دائمًا أقرب الأشخاص إلينا، من نحتاج إلى دعمهم هم أول من يخذلنا. . . رائعين دائمًا في دعم وتشجيع الأغراب، أما أقرب الناس إلينا هم

من نقسو عليهم. . فدائمًا من نحتاجهم هم من يخذلوننا. . وحدي في مواجهة حياة بأكملها، ليس لدي ما أقوله، ليس لدي، هل أنا بالفعل فاشل كما يخبرني الجميع؟! كيف ترى الفشل والنجاح وأنت خارج الدائرة؟
فكما يُقال اليد التي بالماء ليست باليد التي بالنار. . فما هو الفشل هل هو ترك العمل أم ترك الحلم؟!
هل خسارة المال أم خسارة الأيام؟!
هل هو خسارة الأفراد المحيطين أم خسارة النفس؟!
وما هو النجاح، هو جمع وكنز المال!!
هل هو السلطة والنفوذ؟!!
أين أنا، أين في كل هذا؟!!
لم يعُد لدي القدرة على التعبير أو أي إجابة واضحة شافية، فمن مشاكلي أنني أرى وما أراه لا يراه الآخرون!! دائمًا أتساءل من على صواب هم أم أنا. . من أنا! بالفعل لم أعُد أدري. . ولكن لديّ في قلبي وعقلي رؤى وحسابات مختلفة عن الأخرين، أرى الحياة بأن أكون أنا. . لا أفهم فكرة المجتمع ولا فكرة الماكينة والتروس، لا أرى في نفسي ترسًا، لا فلستُ ترسًا في ماكينة العادات والتقاليد والثقافة السائدة. . مفاهيمي تختلف، الصراع داخلي وخارجي قاتل، الآخرون، الزمن، الوقت، الثقافة، المجتمع كلها حبال تلتف حول عنقي. تائه في دوامة الأفكار، عقلي لا يتوقف وعيني زائغة.
خرجت من ذهولي فقط عندما وجدت السائق يصرخ في وجهي ويخبرني أننا وصلنا نهاية الطريق، تركت العربة وأنا تائه، غير متزن. . تحركت على قدمي في طريق عشوائي لمدة ساعتين ولا أعلم ماذا أفعل أو من المخطئ أو من أنا في الأساس! على من أعتمد، على من أتكل، يا الله أين أنت؟

ثم تذكرت صديقي طفل الشارع فقد وعدته أن أراه اليوم فقررت الذهاب إليه. وصلت إلى مسكنه وكانت الصدمة والقشة التي قصمت ظهر البعير.

• • • • •

على من أتكل، يا الله أين أنت؟ ثم تذكرت صديقي طفل الشارع فقررت الذهاب إليه. وصلت إلى مسكنه وكانت الصدمة والقشة التي قصمت ظهر البعير.

وصلت إلى الغرفة التي يسكنها صديقي طفل الشارع في ذلك المكان العشوائي فوجدت بعض الأشخاص ممن يسكنون الغرف المجاورة لغرفته جالسين بالشارع أمام غرفته، تحركت ناحية الغرفة وأنا غير واعٍ بما يحدث أو ماذا هناك، حتى اقترب مني العم حزين -وهو أحد سكان تلك المنطقة وجار لصديقي طفل الشارع، كنا على معرفة ببعض حين كنت أزور صديقي- حادثني قائلًا:

- لقد كان يسأل عنك حتى آخر لحظة.

أجبته:

- أعتذر لقد تأخرت في العمل ولكني ها أنا أتيت، أهو بالداخل؟

نظر لي نظرة استغراب قائلًا:

- من الواضح أنك لا تعلم. .

وقلب يديه قائلًا:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ماذا هناك يا عم حزين؟ هل حدث مكروه لصديقي طفل الشارع؟

قلتها وأنا في توتر شديد ودقات قلبي تسارعت للغاية مكملًا حديثي:

- أخبرني. .

- البقاء لله، توفي الولد يا أستاذ في صباح اليوم وقد تم دفنه.
صُعقت، لم أعد أستطيع السيطرة على جسدي، فسقطت بجوار الحائط، ولم أجد أي كلمة أتمكن من قولها. . .
تمالكت نفسي بعد فترة وذهبت إلى المكان الذي وصفوه لي. . . مكان دفنه. . . وصلت، وجلست أمام قبره على ركبتي، حفرة في باطن الأرض لا تتخطى مساحتها المتر، مغطاة بطوب. . أهكذا هي النهاية! ألقيت عليه السلام فهو في قبره في حضن الأرض فمنها أتينا وإليها نعود وأنا لازلت واقفًا على قدمي مازال نفسي يرفض التوقف والرحيل. . . تحدثت إليه:
- أعتذر يا صديقي. . . هذه هي الحياة. . غير عادلة ولا تعطي من يستحق، بل تُعطي لمن يتمكن منها. . .
صمتُّ طويلًا، ثم بكيت وأخبرته:
- إنني أحبك يا صديقي أحبك، على أمل لقاء قريب.
رحلت وأنا في انهيار شديد، لم أعُد أدري شيئًا. . . مات طفل الشارع وحيدًا. عاش وحيدًا ومات وحيدًا. لا يُقال أكثر من ذلك، كان مريضًا مرض الموت ولم يخبرني، لم يشأ أن يأخذ من وقتي أو أن يرهقني. . . وبالطبع لم يكن له أحد لكي يهتم به أو يهتم لصحته، القيمة ليست للإنسان فالإنسان يساوي قيمة تُماثل قيمة ما يملكه من المال! وصديقي كان يمتلك اللاشيء وكان يساوي اللاشيء، وأنا تناسيته فقد انخرطت في ماكينة الحياة فما هو المهم في تلك الحياة، إنه العمل والمال وإرضاء الذات وإرضاء مروة وليذهب الضعيف والفقير والوحيد للجحيم، آه يا أنا، كم أتألم من أجلك يا صديقي، عشت مجهولًا ومُت مجهولًا.

• • • • •

اليوم السابع يمر دون اختلاف، لا جديد، لا أمل، أنهكتني تلك الأحداث حتى صرت وحيدا في منزلي. لم أغادر مغارتي منذ ذلك الوقت. . .
الموت، العمل، الحياة، الحب، الرزق، المأكل، المشرب وحتى المسكن. . .
ماذا تعني؟!!
ولِمَ الموت؟! لِمَ الافتراق؟! لِمَ الكذب والنِفاق؟!
كيف يمكن أن أحيا في مجتمع لم يعد للفضيلة فيه وجود، وما هي الفضيلة من الأساس؟!!
الله، لِمَ دائما يصمت؟! لِمَ لا يتدخل، أيستهويه ما يحدث؟!
لماذا رحل هذا الطفل وبتلك الطريقة المؤلمة؟!
لِمَ تـُنزع منه الحياة؟! لِمَ لا يـُوهب عمرًا أكثر كما يـُوهب غيره؟!!
لِمَ الموت من الأساس؟! ألا يمكن لله أن ينهي حياتنا بطريقة أبسط وأكثر رأفة بنا من الموت؟!
أنا، متى أموت وكيف ولماذا؟؟
صديقي طفل الشارع لم يحيا كغيره. . تألم، تعذب، أهين ثم رحل، أخذه الموت غصبًا. وأنا. . ماذا فعلت؟!
أسئلة بلا إجابات، والجميع ينخرط في اللامعنى.

• • • • •

اليوم، الحادي والثلاثون من شهر ديسمبر. . الجميع يتهيأ، الجميع يحتفل، الجميع يتزين، الجميع يهنئ الجميع!! ما الذي يدعو للاحتفال؟! لن يتغير شيء، لن يعود الزمن للوراء، ولن يعوض ما هو أتى ما مر فلمَ الاحتفال؟! تنتهي سنة من الزمن وسنة من سنين غربتي على الأرض، سنة من وجودي على هذا الكوكب وفي تلك الحياة، سنة كباقي السنين السابقة، لا جديد

يقال فيها، فقط ما إلا قديم يُعاد، سنة تضاف إلى السنين السابقة وتزيد فوق الهم همًا آخر وبجوار الأسئلة أسئلة أخرى، وإلى الألم ألمًا آخرا، وبجوار التيه حالة من التيه الأكبر، إنه يوم ملعون، رأسي لا يحتمل كم الأفكار التي تتزاحم، ولا تفسير للأحداث التي تتراكم، أشعر بأنني على حافة الجنون. لا أستطيع مجاراة النتائج، لا أتمكن من تحمل تلك الضغوط، أسباب لا تحصى، نتائج لا تحتمل، لم أعد قادرا على سند ما تبقى بداخلي، لم أعد قادرا على دعم نفسي كما كنت أفعل دائمًا، لم أكن أتوقع أو يخطر في ذهني أن أصل إلى تلك اللحظة أبدًا، لم أكن أحسب أنني سأواجه يوما شيئًا كهذا، ولو حتى مجرد تفكير!!

• • • • •

النهاية

مر الوقت وأنا في حالة من التيه، أرغب في الانتهاء من تلك الحياة وهذا الملل وقلة الحيلة، ولا أستطيع فالحياة هي ما أملك، هل يأتي الوقت الذي أتنازل عنها بسهولة، وكل من ملاك وشيطان يجذبني إلى فكره في لحظات، ففي أوقات أشعر بأن كل كلمة تخرج من فم شيطان صحيحة وحق، وأوقات أخرى أشعر بأن ملاكًا محق في كل كلمة، أنا تائه ولا يوجد سند حقًا، أستند على كتفه وأنا أثق إنه لن يخذلني أو يخون ثقتي، ماذا أفعل، أشعر:

- وكأن الحياة أصبحت كتابا مكتوبا أو إجابات محفوظة، فإجابة السؤال العاشر ستجده في الصفحة العاشرة ولكي لا ندع مجالا للجدل أو العقل المنفتح أو الاختيار الحر بل يبقى فقط النقاش المحدود والتفكير المرسوم، تم صناعة حدود من أصحاب السلطة أو الفئة الأقوى، هذه الفئة أو تلك تمت صناعتها من داخل نفوس الضعفاء. ولعدم ترك فرصة لذلك المجال الحر وتلك الإنسانية الفريدة فلنصنع الاختيار المفروض ومن يخرج عنه أو عن الحدود المرسومة فيتم إرهابه بالحكم عليه بأنه ((مجنون، مهرطق أو مرتد!!))، إنها تلك الدائرة اللعينة التي تكون نقطة بدايتها هي نفسها نقطة نهايتها! ماذا أفعل، أستسلم، أكون مجرد نقطة داخل الدائرة، أكون ضمن الإجابات المحفوظة والحدود المرسومة، ماذا أفعل؟!

شيطان وملاك يتحدثان يتجادلان لا يتوقفان، ولكني أرهقت ولم أعُد قادرًا على سماع أي كلمة منهم وأنا في حالة من التيه. فجأة وبدون أي مقدمات أو تنبيه صرخ جرس الهاتف. لم أهتم، ولِمَ أهتم؟! لم يعد شيء يجذب

انتباهي، لا شيء في تلك الحياة!!
عاد جرس الهاتف يصدر ضوضاءه مرة أخرى، من هذا الذي يهتم لمعاودة اتصاله مرة أخرى، ما هو الشيء المهم الذي يدعوه لتكرار اتصاله!! أيضًا لم أهتم، كنت مشوه الفكر، بالفعل كنت بلا أي معنى أو اتجاه فأنا غريق يبحث عن غرقه لينهي تلك المهزلة وتلك المعاناة. عاد جرس الهاتف لإصدار ضجيجه وكأنه يعاندني ويصر على أن أجيب، وكأنه يبلغني بأن الاتصال هام ولابد أن أجيب قبل أن أنهي تلك الحياة. مضطرًا أجبت، وأنا في ضيق أشد مما كنت فيه.
- من معي على الهاتف
أخرجها لساني بصعوبة بالغة وكأنها جمرة نار.
- أنا العمّ حمزة.
صمت هو قليلًا وصمتُّ أنا أيضًا، ثم عاد مكملا حديثه بنبرة عتاب وحزن واضح.
- نسيت العم حمزة يا مجهول؟!
- أنا أنا أنا. . .
تلعثمت في كلماتي وكأنها ترفض الخروج. فأنا أحب هذا الرجل بمعنى الكلمة. . تتذكرون لقد نوهت عنه حينما قصصت لكم مرحلة الالتحاق بالقوات المسلحة وأخبرتكم حينها أن العم حمزة كان له دور كبير في حياتي، ولكني في وضع لم أكن أستطيع فيه الحديث معه أو مع غيره. أخبرته:
- أنا مشغول قليلًا، سأهاتفك لاحقا، اعذرني.
وأغلقت الهاتف غير منتظر إجابته، عُدت بالذاكرة حينها إلى الأيام التي جمعتني بالعم حمزة. توالت على ذكرياتي مواقفي معه، تذكرت متى

قابلته وكيف أنني أحببته وأحببت الحديث معه، كيف كان يهتم بي على المستوى الشخصي، كان يهتم بأن يتحدث لي دائما، وأتذكر كيف قص لي قصته وحكايته التي لم يكن يقصها لأحد! عادت بي الذاكرة إلى تلك الأيام والأحاديث.

• • • • •

توالت على ذاكرياتي مواقفي معه، تذكرت متى قابلته وكيف أنني أحببته وأحببت الحديث معه، كيف كان يهتم بي على المستوى الشخصي، كان يهتم بأن يتحدث لي دائما، وأتذكر كيف قص لي قصته وحكايته التي لم يكن يقصها لأحد! عادت بي الذاكرة إلى تلك الأيام والأحاديث. . .

كان العم حمزة مهندسا في مجلس المدينة بالسويس. كانت الأمور تسير بشكل جيد ولكن لم يكن محبوبا!! -لا تسئ فهمي، فقد كان محبوبًا جدا من أصدقائه وأقاربه وجيرانه ولكنه لم يكن محبوبا من العملاء والمواطنين الذين يبغون تيسير أعمالهم بطرق مشبوهة. فالعم حمزة لم يكن يرغب أو يريد أن يسير الأمور بالرشاوي أو المخالفات أو ببعض الهدايا، كان أمينا في عمله. لذا لم يكن محبوبًا. فالحب في هذا الزمن يرتبط ارتباطا وثيقًا بالمنفعة. فبلا منفعة لا حب.

كان العم حمزة متزوج من العمة هدى وكانت من الشخصيات الطيبة البسيطة. تذكر دائمًا الله. لا تنسى فرضا. عمل الخير لا يفارقها، كان الجميع من جيرانهم يمتدحونها، والجميع يحبها، الكبير قبل الصغير، ولما لا يحبوها ودائمًا تتكلم بالحسنى، الابتسامة لا تفارقها، الفقراء تتذكرهم دائمًا بالمأكل والمشرب والملبس أيضًا، تسأل عنهم، حتى حيوانات الشارع المشردة كانت تعد لهم الطعام يوميًا وتضعه أمام المنزل ليأكلوا ويشبعوا، تهتم بالجميع، فهي تدعو الكل بكلمة يا ابني، فلم تكن تهتم ما هو دينك أو أصلك وابن من أو فصلك فهي تراك إنسانا كما ترى نفسها إنسانا وترى أن الإنسانية هي ظل الله على الأرض فهي قبل الأديان والفروض والطقوس إنها الدين الأكبر الذي تنشق منه كامل الأديان. كل حسب إيمانه.

كان للعم حمزة والعمة هدى ابنًا يُدعى مدحت. . . كان يعمل طبيبًا

ومتزوج من طبيبة تُدعى ماريا، كان شابين في مقتبل العمر، لديهم الراحة المادية والاجتماعية يعيشون في أفضل الحالات، قليل ما توجد بينهم مشكلة، فالتفاهم هو سيد الموقف في أغلب الأحيان، كان مدحت دائم الابتسامة كوالدته، فقد ورث عن والده الأمانة واليد النظيفة ولون العينين الأخضر، أما الابتسامة والكلمة الطيبة وتقديم المساعدة كان تلك هي نصيبه من والدته، يعين الجميع الفقير قبل الغني، الضعيف قبل القوي، لا يخاف كلمة الحق، تزوج وكانت الأيام مليئة بالحب بينه وبين ماريا والعم حمزة والعمة هدى ومرت الأيام بحب وبسلاسة ما بعدها سلاسة، يبدأ اليوم بابتسامة من الجميع للجميع وينتهي اليوم بابتسامة من الجميع للجميع، أخبار سعيدة تزيد الفرح والهناء، وكان أجمل تلك الأخبار هو خبر الحمل فقد بدأت ماريا فترة التسعة أشهر، سيرزقون بطفل جميل، سيصبح مدحت أبا والعم حمزة جدا والعمة هدى جدة، ياله من إحساس رائع. اهتم الجميع براحة ماريا وانتظار ولي العهد الملك المنتظر، تسارع الجميع في تقديم خدماته والبحث عن راحة ماريا طوال تلك الفترة وفي نهاية فترة الحمل حان وقت الولادة، لم يكن مدحت بالبيت فقد تم استدعاؤه لإجراء جراحة عاجلة في المشفى التي يعمل بها، لم يتأخر أو يعتذر، تناول ملابسه وتحرك إلى المشفى، رغم أن ذلك الوقت ليس وقت عمله ((نبطشيته)) ولكنه كما قلت فهو دائم الخدمات للجميع. تكفل العمّ حمزة بماريا والعمة هدى وتحرك على المشفى للولادة. حضرت العربة وتم نقلهم إلى المشفى.

أثناء عملية الولادة جاء اتصال من مدحت للعم حمزة بأنه أنجز العملية الجراحية وهو في الطريق إليهم، فهو يرغب بأن يكون أول من يرى ابنه.

دخلت ماريا إلى غرفة العمليات لبدء عملية الولادة التي كانت عسرة بعض

الشيء. وفي الخارج ينتظر العم حمزة والعمة هدى والدعاء لله بأن تخرج سالمة وبخير.
كان مدحت على الطريق عائد إلي العم حمزة ووالدته وماريا بعد أن أنجز الجراحة التي كان يجريها. كان في أشد وأصفى لحظات الفرح. علامات وجهة تعبر عن مدى وقوة فرحته.
وفجأة اختل توازن العربة التي أمامه، فقد أصيب السائق بغيبوبة سكر مما أفقده السيطرة على عجلة القيادة، حاول مدحت إنقاذ نفسه فمال بالعربة ناحية اليمين ولكن اصطدم بعربة قادمة من الخلف بسرعة جنونية، مما تسبب بفقدان السيطرة على العربة بالكامل وكان الاصطدام قوي جدا مما أطاح بعربة مدحت في الهواء وتقلبت عدة مرات في الهواء واستقرت مقلوبة الوضع، فقد على أثرها مدحت وعيه، التف المارة وتوقف الطريق، حاول الجميع المساعدة وتكاتف المواطنين لإخراجه من العربة، ولكن كان الأوان قد فات!
مات مدحت!! ففي اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة ولد وحيد ابنه ولفظ أولى أنفاسه في الحياة!! ففي اللحظة التي حملت يد العم حمزة وحيد حفيده فقد مدحت ابنه وحيده حبيبه!

Rip

مرت الأيام وكانت صفعة الحياة قوية على خد الجميع، ولكن كعادة الحياة أيضًا فإن الأيام تشفي الجراح وتستر الحزن وتهون الألم فتمكنت العمة هدى والطبيبة ماريا من تجاوز الأزمة، فالعمة هدى مؤمنة بالله

واستسلمت تمامًا لإرادته ومشيئته في الحياة فهو الذي أعطى وهو الذي أخذ. ولكن العم حمزة لم يتمكن. كانت الواقعة كالنفس الأخير الذي يُـلفظ في الحياة فمن منا يتركه بسهولة إنها الحياة. . . هكذا كان مدحت للعم حمزة. لم يتمكن من تجاوز تلك المحنة، كانت الضربة أقوى من تحمله، حتى إيمانه لم يسعفه ولم يعطه الإجابة المريحة أو الكلمة المعزية، انزوى بعيدًا، أغلق بابه على نفسه. لم يعُد يخرج كما كان في السابق، لم يعُد يُحادث أحدا، انعزل عن الجميع، قدّم طلبا بالخروج على المعاش مبكرا وتمت الاستجابة فقد قدر الجميع حالته. مر بعض الوقت بعد ذلك وقرر ترك المدينة والذهاب إلى العين السخنة وعلى بُعد مسافة من القرية السياحية صنعا كوخًا والتزم به. قرر التوحد هناك بعيدًا عن صخب العالم وضوضاء تلك الحياة اللعينة التي لا تعطي شيئًا بحب. . وكانت أيامه كالآتي: يخرج صباحًا لصيد السمك يأكل ويطعم قططه ويبيع ما تبقى للسياح -الذين يأتون إليه خصيصا- كي يتمكن من التكفل بمصروفات المعيشة ثم يعود إلى كوخه لقراءة الكتب وتربية الطيور والقطط!! ذيع صيته في تلك المنطقة وبعض القرى السياحية المجاورة وقد أحبه الجميع دون استثناء، أحبوه فقد كان يعطي الجميع: عُمال القرية، أفراد الأمن، أفراد الوحدات العسكرية، سمكًا وطيورًا للأكل دون مقابل منهم، كان يصلح بين الأشخاص في حالة حدوث مشكلة فالجميع يسمع له يقدره، حتى السياح سمعوا عنه وأحبوه، كانوا يأتوا إليه خصيصًا، هذا هو العم حمزة، هذا الرجل الذي ترك الحياة لصناعة حياة خاصة به، يصنع هو نظامًا لها وقوانين يسنها بنفسه، حياة تستمد قيمتها منه وليس العكس، كسرته الحياة التقليدية فكسرها بحياته الاختيارية.

تذكرت إحدى حواراته فقد أخبرني في إحدى المرات قائلًا:
- تذكر، تذكر ولا تنسَ أو تتناسَ، أنك دائمًا وأبدًا وحدك من يتحمل المسئولية، فإن قرارك أيا كان، سيترتب عليه نتائج، فإن قررت أن:
تفكر أو لا تفكر.
تقتنع أو لا تقتنع.
تفعل أو لا تفعل.
تختار أو يفرض عليك.
في النهاية ستتحمل النتيجة، ولا يحملها أحد عنك، ثق في ذلك. أنت حر.
كانت تلك هي الجملة أيضًا التي اتفق عليها الاثنان شيطان وملاك. عجيبة فأول مرة يتفق ملاك وشيطان في كلمة، أنا حر! أعدت حينها نظري إلى ماء النيل مرة أخرى فأنا حر، لي الحق الآن في القرار أن أردت إنهاء حياتي فأنا حر وإن أردت التراجع والعودة للحياة فأنا حر.
تذكرتُ حينها، أن في كل موقف وكل حدث وكل خطوة ناجحة أو خطوة فاشلة، كل كلمة وكل فرحة أو حزن كلها أتت باختيار حر أو اختيار مفروض، ففي النهاية أنا حر، حتى عندما أترك للآخر أو الظروف أو المجتمع أن يجبرني على اختيار!! فذلك أيضًا هو اختياري فقد اخترت أن أقيد نفسي باختياري!! كيف لم أقف ولو مرة وحيدة في وجه الآخر والظروف والمجتمع، لماذا لم أحارب حتى النفس الأخير، على الأقل إن لم أتمكّن من الوصول إلى غاية الرحلة فيكفي أن أحارب كي أسير في طريق الرحلة، كيف لم ألاحظ أن عظمة الرحلة في اكتشافات طريقها، فهي الكنز الأعظم، لماذا ينبغي أن أفعل كما يفعل الجميع وأن أحارب حروب الجميع وأن أنتقد ما ينتقده الجميع، لماذا عليّ أن أصبح نسخة مكررة ورقمًا في تعداد البشر، فأنا حر،

إنها النقطة الفاصلة، فأنا حر، يجب أن أشعر بها وبكامل كياني وليست فقط مجرد كلمة يتم ترديدها، ما أحتاجه فقط بجانب تلك الحرية هي العودة إلى الطفولة فعندما كنت طفلًا كنت أفضل حالًا.

• • • • •

وفي أثناء تلك الذكريات والأفكار التي غمرتني، صرخ جرس الهاتف مرة أخرى. كان المتصل صديق العمر آدم، فقد قرأ آدم ما كتبته على صفحة الفيس بوك، ولأنه كان صديقًا بحق فلم يكتف بعمل أعجاب أو كتابة تعليق ولكنه بحث عني ولما لم يجدني اتصل بي هاتفيًا من أجل الاطمئنان عليّ وتشجيعي. صديقي حقًا لا غش فيه. كالعادة حالة من تبادل الأدوار، عندما يكون هو في حالة من الضيق أقوم أنا بدور المشجع ثم يأتي تبادل الأدوار عندما أكون أنا في حالة ضيق يقوم هو بدور المشجع، بل تأتي لحظات نردد فيها ما قاله لنا الآخر!!

كنت في حالة من الضيق والانفعال حالة من اللامعنى واللافهم. كنت في حالة من عدم التجاوب معه في المكالمة الهاتفية. ولكن لم يصبه الملل مني أو من تصرفي. كان الصديق الحق. حاول بقدر استطاعته إدخالي في الحوار معه.

ذكرني بتلك الواقعة التي حدثت معي ومعه منذ سنتين تقريبًا. حينما كان آدم مريض بأحد الأمراض الصعبة ((السرطان)) وكيف كانت حالته، كيف أصابه اليأس واللامبالاة. يحيا بدون حياة فقط يستيقظ لكي ينام منتظرًا الموت. هذا هي أيامه ببساطة. حالة من الاستسلام والسلبية.

ذكرني كيف كنت أنا حينها قريبًا منه محاولًا تخفيف ما يمكن تخفيفه عنه. وكيف أنني قصصت له عن صديق لي، صديقي طفل الشارع وكان

هذا الطفل يُدعى مجهول. نعم مجهول!! صديقي ((طفل الشارع!!))، لا تتعجب فقد كان صديقي طفل الشارع يُدعى مجهول وقد أعجبني هذا الاسم لذا قررت فيما بعد استخدامه بدلا من اسمي. فقد كان اسمي والذي فُرض عليّ من الحياة هو ((معروف كامل ثابت))، لكني قررت تغييره ببطاقة الرقم القومي فلا أنا معروف ولا كامل ولا حتى ثابت على شيء وقد كان أفضل اسم أختاره لنفسي هو اسم صديقي مجهول!! ومن حينها وأنا أدعى مجهول فهو أنسب اسم لي. أنا مجهول وجاهل بالكثير والكثير، جاهل حتى بنفسي. وأخبرت الجميع أن اسمي هو مجهول وهكذا أصبحت مجهولا.

• • • • •

أكمل آدم تذكيره لي بصديقي طفل الشارع مجهول. كيف إنه قاوم حالة الفقر واللامعنى وتحرر من كل فكر استعبده وكل استسلام فرض خيوطه عليه، تحرر بمعنى الكلمة، ذكرني آدم بكلمتي على مجهول طفل الشارع بأنه باحث عن نفسه حتى اللحظة الأخيرة، رافض المطلق وقابل لكل ما هو جديد، وأن عينه ستظل ترى حتى النهاية. تذكرت عندما سمعت تلك الكلمات من آدم أن مجهول قبل موته ببضعة أيام ترك لي خطابا وأخبرني أن أقرأه كلما احتجت إلى معين أو شعرت بضيق أو وحدة كما كان يفعل هو بخطاب مفيد ولكنني نسيت، فالنسيان سمة الحياة التي تدار بشكل ماكينة وتروس!

تركت آدم يتحدث على الهاتف وسرحت أنا بعقلي في مجهول، تحسست بيدي جيبي الخلفي وأخرجت المحفظة، فتحتها وبحثت عن الخطاب. فقد تذكرت أنه منذ أن أعطاه لي مجهول وأنا لم أفتحه أو أخرجه من المحفظة يا للصدف. . . أخرجته وفتحت الخطاب وبدأتُ أقرأه:

جواب مجهول طفل الشارع صديقي

. . . صديقي. . .

أرجو أن تكون بخير.

أدعو الله دائمًا لأجلك.

أشكرك لأجل كل اهتمام بذلته لأجلي.

ولأجل كل مرة سألت فيها عني.

أشكرك لأجل محبتك وتعبك بقدومك المتواصل إلى بيتي غير المهيأ.

أشكرك لأنني تعلمت منك الكثير.

أشكرك لأنك أعطيتني الدعم المادي والنفسي.

((لم أكن أعطيه شيئا يذكر إنها فتات. . . أيشكرني على فتات! فتات. . . يا لعظمتك يا مجهول)).

وخصوصا الدعم النفسي. كنت نعم السند والظهر.

أشكرك من أجل كل لحظة قبلت أن تنصت لي باهتمام كبير. وأنك سمعت كلماتي. أحاديثي وآرائي. أشكرك لأنك لم ترفض آرائي بل سمعتها بمنتهى الاحترام والحرية أشكرك لأنك احتويتني، لم تتركني إلى الوحدة والألم القاتل، أتعلم كم كنت ترد لي روحي في كل مرة كنت تسأل فيها عني؟ أتعلم كم الفرح والتنيهدات والارتياح في كل مرّة تبتسم في وجهي؟ لقد أعدت إليّ روحي. لقد رأيت الله فيك فأنت أعدت لي رؤية الله التي لم أكن أراها. . . لأنك أعطيتني مساحة لأعبر عن نفسي وفكري، أعطيتني معنى وشراكة في الحياة.

لقد ظللت أبحث وأسأل. أريد أن أفهم، أن أعي، أن أستخدم ما وهبني الله إياه. العقل والإدراك. أدركت القليل. أدركت أن الحرية هي أن تفعل ما تريد وتتبعها المسئولية عما ينتج عنها. وأن كل شيء قابل للنقد، للهدم، للبناء، للتعديل. وحينما قابلتك. أدركت أنني لستُ وحيدًا في تلك الرحلة وأدركت أن هناك أشياء جميلة تحتاج للرؤية. رأيت محبتك التي لا تعطى بشرط. رأيت أمانتك. وروحك الهائم الباحث. صديقي. . . عن خبرة وعن حب أترك لك نصيحة: ((لا تستسلم ولا تهرب. واجه. اختر. قرر. حارب وتحمل مسئوليتك. سترى وتكتشف، ستختبر أنت ما لا يختبره الآخرون. قاتل يا صديقي، قاتل من أجل كل لحظة واكتشاف، قاتل حتى الرمق الأخير)).

أتعلم قد عانيت كثيرا، كنت أبتسم أمام الناس وأبكي بكاءً مرًا في مخدعي،

لم أجد يومًا من يهتم بي، لم أجد من يسأل عني أو يصادقني، كانت الحياة بالنسبة لي قضاء وحكمًا صعبًا صدر عليّ، تمنيت الموت كثيرا. حتى في عز اكتشافاتي ونضوجي الفكري ورؤيتي الأعمق للحياة ولكني كنت وحيدا، مخنوقًا. . . حتى أتى اليوم الذي قابلت فيه مفيد. . . أعاد لي الأمل والحياة. . . حتى عندما اختفى لم يتركني لليأس أو التيه فقد ترك لي جملة، ظلت تلك الجملة معي حتى اليوم. . -وجد بشر للنعيم ووجد آخرون للألم والشقاء. . وآخرون حملوا على أكتافهم أن يتألموا وأن يخرجوا عن الصف ويعانوا بزرع الصحراء، كي يتمكن الآخرون من رؤية الحياة الخضراء-، كان هو مفيد، ثم أنا وستكون أنت أيضًا. . . تألم ولا تبكِ، تألم ولا تقف، ازرع اليوم حتى يحصد آخرون العام القادم، كن أنت النور، في تلك الحياة المظلمة.

سلام يا صديق، على أمل الالتقاء.

مجهول صديقك.

بكيت وبكيت وبكيت. الحياة ليست عادلة في أغلب الأحيان.

نظرت إلى هاتفي وقمت بإحضار اسم العم حمزة وعاودت الاتصال به. . . لم يستمر الهاتف في الطلب كثيرًا، أجابني العم حمزة سريعًا، بصوته المحبب لقلبي وطريقته الجميلة:

- كنت منتظرًا وأعلم أنك ستطلبني وسريعًا. . . أوحشتني كثيرًا يا مجهول، ماذا بك يا ولدي؟

ذهلت من الكلمة الأخيرة، فالعم حمزة لا ينادي أحدا بولدي! فتلك الكلمة كان ينادي دائما بها مدحت ابنه.

أبتسمت ابتسامة خفيفة وأجبته:

- لست بخير يا أبي، لست بخير.

- أعلم هذا يا بني، فقد شعرت بك، وما زاد يقيني وتأكيدي رسالتك، حادثني يا بني ماذا حدث، هل تعلم أن الحكي هو أول الطريق للحياة، هو أول أنفاس الحرية، احكِ يا ولدي احكِ. .

أخبرته بكل ما حدث، فأجابني. . .

- أتعلم يا بني. . . في اليوم الذي مات فيه مدحت، فقدت الحياة، فقدت الأمل، كنت في نفس شعورك، لذا فأنا شاعر بك، فيدي أيضًا مرت بتلك النار، شعرت بأنني أرغب في الموت فلم تعد للحياة قيمة، وكي أتمكن من الخروج من تلك الحالة أخذت من الوقت الكثير.

سأقص لك قصة كان يقصها لي والدي عندما كنت أحبط أو أكتئب عن شخصين ولدا معا وكبرا معا. . . في فترة من الزمن كان هناك اثنان من الأصدقاء يحيون حياة جميلة لا يعكرها شيء. فالسعادة والاستقرار هما أسس حياتهم، وفي وقت ما وبدون أي مقدمات أو تحذيرات واضحة انقلبت تلك الحياة رأسا على عقب، حيث طُلب منهم في العمل هم وبقية الموظفين إجراء فحوصات شاملة كاملة، وتم، وكانت المفاجأة: لقد اكتشفا الاثنان أنهما مصابان بالسرطان، ليس ذلك وفقط بل الفاجعة المؤلمة كانت أنهما في مراحل متأخرة من المرض ولم يعد هناك وقت للنجأة!!

ماذا تتوقع أن يفعلا يا بني؟!

صمت العم لحظات منتظرًا مني إجابة، وبالفعل شدني الأمر ولكني لم أكن أمتلك إجابة واضحة إلا أن أخبره:

- لا شيء عليهم انتظار الموت، فلا مجال آخر.

أجابني العم حمزة:

- أمممم، إجابة مستسلمة يا بني، اسمع ماذا فعلا واحكم أنت.

- تمام، احكِ يا عم حمزة، فإني منصت.
- أحد الاثنين قرر أن يستمتع بباقي اللحظات المتاحة في عمره، قرر تجاهل المرض ونسيانه وأن يحيا الأيام القادمة بكل أريحية واستمتاع، يسعد ويتمتع، يذهب إلى تلك الرحلة ثم يعود إلى ذلك المعسكر ومنه إلى هذا المصيف، لم يترك لحظة إلا واستمتع بها يخرج مع أصدقائه، يغفر لهذا ويسامح هذا ويصنع الأعمال الخيرية هنا وهنا، وقد كان.
أما الثاني فقرر الآتي، قرر أن يخوض المعركة في تلك الأيام المتبقية، قرر أن يصارع هذا المرض وحتى إن لم تكن القوى متكافئة، ذهب إلى هذا الطبيب وإلى تلك المشفى، بحث هنا وهناك، لم يترك منفذا أو اقتراحا لم يذهب إليه، قرر الحرب والقتال وقد كان.
سريعًا سألته:
- وماذا حدث؟؟!
ابتسم العم حمزة، شعرت ببسمته وأنفاسه. ثم أخبرني:
- لا أدري يا ولدي، لا أدري لم يخبرني أبي عن النهاية أبدا، لكن في النهاية كلا منهما استمتع بحياته على طريقته، لم يتركا للموت اليد العليا. بل أعطوا للأيام والحياة والأنفاس المتبقية قيمة ومعنى وهدف. ما أستطيع أن أخبرك إياه يا بني:
الموت سيأتي سيأتي يا بني، لا تستعجله فالموت قدر علينا، الموت غصب وحكم، ليس بيدينا شيء. الموت موت سيأتي شئت أم أبيت، أما الحياة فهي اختيارنا. .
لا تستسلم، فالنفس الخارج سيأتي يوم ولا يعود، فاجعل خروجه وعودته ذوي قيمة، ليس لديّ إجابات عن أوجاع الحياة. فالألم أمر قائم حقيقي لا

يمكن تجاهله. ولكن لدي قول واحد، تمسك في الحياة بيدك، لا تنظر لغيرك، لا تنظر لمعتقدك وما نشأت عليه، لا تنظر لمجتمعك أو المجتمع المختلف عنك، لا تنظر للألم، لا تنظر للأشخاص، عُد طفلًا يا بني وانظر ما حدث! أعد شريط الحياة وابدأها بداية مختلفة. هل تذكر عندما كنت حيوانا؟ نعم حيوانا منويًا لم يكن لديك الإدراك الذي تمتلكه الآن، كنت حيوانا من ملايين الحيوانات المتصارعة على بويضة، الكل يقاتل من أجلها، انتصاره بها يعني الحياة!! أرأيت يا بني بدأت الحياة بالصراع. . صارعت من أجل الظفر بها. لتعلم كم هي غالية وكم تعني حتى وإن لم تكن تدرك. فما بالك الآن وأنت تدرك! حاربت وانتصرت، انتصرت على ملايين غيرك ومات وانتهى واختفى من لم يتمكن. . بدأت الحياة باختيارك وسعيك وقتالك. . . كافحت أيضًا حتى داخل ظلام الرحم، ذلك الرحم الفسيح لم تهَبْه وقاتلت بكل قوة بحثت هنا وهنا، ركضت هنا وهنا، حتى تمكنت من الالتقاء بالبويضة التي وهبتك الحياة. إنها لحظة الحياة. وواصلت التكوين يومًا فيومًا تكونت قاتلت حتى تكون كامل الجسد. . حتى يوم الخروج إلى النور، خرجت وأنت تصرخ. . خرجت إلى عالم غريب لم تكن تعرفه، عالم جديد وحروب جديدة. . . بكيت، ففي تلك اللحظات ستواجه الحياة وحيدًا ضعيفًا، ستبحث عن طعامك ومسكنك، ستقاتل من أجل الحياة مرة أخرى. . خرجت من الرحم ورقة بيضاء، كاملة البياض، صافية ونقية، لا تحتوي على شيء. . . ورقة تندهش من أجل كل شيء تراه أو تسمعه. ما أروعه الاندهاش يا بني! كنت تندهش، تسمع، تتعلم، تكون رؤية وفكرًا ورأيا، ولكن فُرضت عليك آراء وأفكار، صور وطرق للحياة، قيود ومعانٍ غريبة. . تلوثت الورقة يا بني وامتلأت بكل ما هو جيد وقبيح. . . عليك

الآن أن تمزق ورقتك تلك فهي ورقة ملوثة بكل الأفكار والآراء والعبث، إنها أنت ورقة ملوثة. . مزقها يا بني بكل ما سجلته الحياة والأشخاص والمجتمعات والدراسة والإعلام والعادات والتقاليد والقيود والتحرر. . إلخ، مزقها. وابدأ بورقة مختلفة، جديدة لم تمس، ورقة بيضاء نقية ترسمها أنت. . عليك بإعادة الاندهاش لكل ما تراه وتسمعه، عليك بإعادة التكوين والاكتشاف، لا تستسلم للحياة التي علموك إياها، بل تعلم أنت بنفسك الحياة، اندهش لها يا بني وانسَ كل ما هو قديم عتيق، بل أقول لك ابحث عن الأجوبة كأنك ستجدها، وإذا وجدت واصل البحث عن أجوبة أعمق. .

فأنا حتى اليوم أبحث يا بني.

حتى اليوم!!

ترك العم حمزة بداخلي أفكارًا جديدة ومختلفة عن الحياة، الحرية، البحث، الصورة المشوهة والصورة المتجددة، فرق كبير بين أنا كأنا وأنا كالآخرين. . .

انتهى الحوار بيني وبين العم حمزة.

مر الوقت وأنا ما زلت واقفًا فوق هذا الجسر منتظرًا أن ألقي بنفسي في مياه النيل تاركًا الحياة بكل ما فيها بكل شيء. بألم الحياة وقوانينها وأنانيتها، بجدال ملاك وشيطان المميت والمؤلم، ولكن كلام العمّ حمزة وآدم وخطاب صديقي مجهول تركوا فيَّ أثرًا جديدًا وإحساسا مختلفًا، فالحياة حرب والحرب تحتاج إلى الانتصار. نزلت من أعلى الجسر ونظرت إلى المياه ثم نظرت إلى ملاك وشيطان وهما مازالا يتجادلان وضعت يدي على آذاني حتى لا أسمع ثم حررت نظري منهما ومن المياه وتحرّكت في طريق الله باحثًا عن الحياة التي وهبني إياها الله.

• • • • •

اليوم وأنا في بيتي في غرفتي كفني المقدس وأنا أكتب ما مر بي وأتذكر، أرى بعين مختلفة، أعلم تمام المعرفة أنني وجدت في هذه الحياة وعلى تلك الأرض وفي ذلك المجتمع وبهذا الدين وبتلك التربية وبتلك الثقافة ولا أدري لِمَ؟! ولكن الآن وبكل بساطة قررت ألا أستسلم، فإن استسلمت مُت، ولكن إن حاولت فسأكتسب الثقة، وإن حاربت سأقوى وإن قويت سأصمد وإن صمدت سأنتصر.

إن كنت أشعر بأن الحياة لا تستحق فالموت يا صديق أسوء كثيرًا ولا يستحق، لذا فقد آمنت واعتقدت بأنني أعطيت الحياة هبة ولن أتركها، فإن كان الموت قادما لا محالة، فالحياة ستذهب لا محالة!! سأحارب حتى النفس الأخير، لن أنتظر من الآخرين التجربة، بل سأحياها أنا، لن أنتظر المبادرات بل سأكون أنا بنفسي مبادرة، لن أستبق الخطى وراء الأغلبية بل سأحلل وأناقش ثم أقرر، لن أتبع ما ولدت عليه أو ما أقره المجتمع، بل سأصنع خـــُطاي وأشق طريقي وأجعل لحريتي معنى، فما قيمة الذهب إن لم تستغله، وما قيمة الدواء لو لم تتناوله، ما قيمتي أنا لو لم أحيَ وأصنع شخصيتي، ما قيمتي إن كنت نسخة مكررة وعدد زائد في تعداد البشر، لن أركض للموت بل سأحارب الموت لأجل كل لحظة حياة.

سأحيا طفلًا صغيرًا يندهش لكل شيء وفتى مراهقا يغامر دون خوف، ويافعًا ناضجًا حرًا يختار ويقرر فكره ومصيره وليذهب شيطان وملاك والمجتمع والجميع للجحيم. فالحياة طرق كثيرة مجهولة تحتاج إلى البحث والاكتشاف. . سأقاتل لأجل الحياة وستظل الأسئلة والبحث حتى اللانهاية.

تم

- معروف يا بني الغذاء جاهز فلتأتِ.
إنها أمي، اعذرني أيها القارئ فهي لازالت تناديني بمعروف، هكذا تراني! لقد أنهيت كتابي ولم يعد لديّ ما أقوله، سأتركك يا صديق فإني بالفعل جائع، اسمح لي يا قارئي. . شاكر لك على صبرك وطول أناتك في القراءة والمشاركة فيما عانيت، شاكر لك.
- قادم يا أمي.
خرجت من كفني المقدس ((غرفتي)) وفي قدمي تسير قطتي طالبة أيضا طعامها، ذهبت لغرفة والدي، قبلت رأسه ويده، ثم خرجت إلى غرفة المعيشة حيث طاولة الطعام، قبلت يد أمي، ثم جلست. وإذا بأمي تحادثني قائلة:
- ماذا حدث بينك وبين مروة يا بني؟ هل بالفعل فسخت خطوبتكما؟!
يا بني أرغب في أن أفرح بك قبل موتي٠،٠ لابد من أن تتزوج إنها سُنة الحياة٠،٠ أرغب أنا وأبوك في رؤية أولادك٠،٠
نظرت لها وعلى وجهي ابتسامة خفيفة وقبل أن أجيبها وجدت ملاك وشيطان قد حضرا وجلسا على طاولة الغذاء ينظران إليّ وتعلو وجهيهما ابتسامة عريضة وطويلة٠
ابتسمت أنا لهما وابتسمت لأمي ثم أكملت غذائي

تواصل معنا :

01011464037

E-mail -:Sonon. Pub@Gmail .com

جميع حقوق النشر محفوظه لدار سنون للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه